العرفان عند السيّد محمّد سعيد الحبوبي

مع شرح للحالات العرفانيّة وموقعيتها في الفكر الإسلامي وبيان حقائق ومرادات السيّد الحبوبي في بعض أشعاره العرفانيّة.

أحد طلبة الحوزة العلمية

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات أو أفكار يتبناها مركز عين للدراسات البحوث المعاصرة وإن كانت تقع في دائرة اهتماماته وأولوياته

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦م

من أهداف مركز عين:

مركز "عين" للدراسات الفكرية المعاصرة، يعنى بتفاعلات الواقع الإسلامى، ويحاول أن يؤصل للحلول والمقترحات تجاه مشكلات الإنسان المعاصر..

كما وينطلق من رؤية راسخة بقابلية الحضارة الإسلامية على قيادة الحياة وتقديم نموج يتناسب مع احتياجات العصر من غير أن ينقطع عن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسعى المركز ضمن برامج بحثية وهموم ثقافية ودورات لكتابة البحوث وتصديرها، لتعزيز الوعى الاجتماعى بقضايا الثقافة والأفكار ومناقشة مطاريح التخلف والتسيد لقيم غير أصيلة فى المجتمع..

ليس من أهداف المركز أو مطاريحه الاعتناء بالتبشير الطائفى، ويؤمن أن ما يحدث اليوم هو طائفية سياسية تسعى لتجيير كل الدين والإنسان فى أتون معركة مصالح دنيئة.. ولا نمانع من دراسات تنطلق من التسامح فى التعايش والإيمان بمشتركات الإنسان دون إلغاء الآخر مع الاحتفاظ بالرصانة العلمية وشروطها..

كما يؤمن المركز أن الحلول الإسلامية تنطلق من جذورها المناسبة، ولهذا فهى تحاول التأسيس من منطلقات اسلامية خالصة، بعيداً عن كل التحيزات المحيطة..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد وآله الطاهرين..

كيمياء الحب:

السيّد محمد سعيد ابن السيّد محمود ابن السيّد قاسم الحبوبي، عالم شهير وشاعر كبير ومجاهد معروف، ولد في النجف الأشرف في محلّة الحويش عام ١٢٦٦ هـ - ١٨٤٩ م[1]، وكان إمام الصلاة في الحرم الطاهر.

ارتشف الحبوبي لحظات العشق الإلهي وهو في أوج تألقه في جوار مشهد الإمام علي عليه السلام، ذلك المقام الكريم الذي نال العرفاء كلهم أوج تألقاتهم تحت قبّته الشريفة..

إنه الإمام الذي لا يزال نميره صافياً زلالاً لكل وارد على حضرة الجمال السرمدي، فيمير أهل التقى ويزيل عنهم درن الدنيا وأوساخ التعلّقات المادية المذمومة، ذلك الإمام الزاهد العارف بالله

(١) علي في الكتاب والسنة والأدب، الاستاذ حسين الشاكري ، ج٥ ص٤٦.

الذي شدَّ كل مريدي الحب والوصال وطالبي القرب والجمال الى ساحة القدس، والى انقطاع النفس عمّا سواه سبحانه والى القلب السليم الصافي من هموم الدنيا، الى باب واحد ومقصد واحد جرّهم الى ضفة السلامة وبعيداً عن الدنيا الخدّاعة الغرور، «قد أحيا عقله وأمات نفسه، حتى دق جليله ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق فأبان له الطريق وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السّلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه»[1].

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: «قلت جعلت فداك: لمَ سمي أمير المؤمنين أمير المؤمنين؟ قال: لأنه يميرهم العلم، أما سمعت كتاب الله عز وجل ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف : ٦٥]»[2].

وعن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام: «في قول الله عز وجل ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ قلتُ: ما طعامه؟ قال عليه السلام: علمه

(1) نهج البلاغة: الخطبة: ٢٢٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٧ ص٢٩٣. والميرة - بالكسر -: جلب الطعام، وأمير المؤمنين، لأنه يميرهم ما هو سبب لحياتهم الأبدية وقوتهم الروحانية وغيرها، أنظر، المصدر المشار اليه.

الذي يأخذه عمن يأخذهُ»[1].

إن باب التقوى الذي فتحه أمير المؤمنين عليه السلام لكثير من طلاّب التقى والمعرفة لا زال مفتوحاً لم يُغلق، فلم تنتهِ تلمذة سلمان وأبي ذر، ولم تنتهِ أسئلة كميل بن زياد، ولم تنتهِ كلمات علي عليه السلام في مسجد الكوفة، فالفيض لا يزال يترى سائحاً باحثاً عن القلوب الوالهة الحزينة، ولا يزال علي عليه السلام يبحث له عن حملة[2]، فعلي عليه السلام اليوم والبارحة هو هو يبحث عمّن يلّقنه ترانيم العشق ويفتح بصيرته للتألق والجمال والصفاء الزاهي، وكأنه ينقطع الحديث، إذ لا لسان للعبد بعدئذ «إلهِي وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ نادَيْتَهُ فَأَجابَكَ وَلاحَظْتَهُ فَصَعِقَ لِجَلالِكَ فَناجَيْتَهُ سِرًّا وَعَمِلَ لَكَ جَهْراً»[3].

وهذه هي ترنيمة العشق التي تعلّمها السيّد الحبوبي وأخذ يرددها كل عمره! فنريد أن نقف عليها ها هنا قبل أن يأخذنا الكلام

(1) الكافي: ج1 ص39 ح8

(2) مما قاله أمير المؤمنين عليه السلام وهو يشير الى نفسه الشريفة: «ها إن بين جنبي علماً جمّاً لو أجد له حملة». شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج6 ص134.

(3) من مناجاة أمير المؤمنين عليه السلام وتسمّى بالمناجاة الشعبانية، مفاتيح الجنان: ص265.

المريح عن الله تعالى بعيداً عن صاحبنا الذي نكتب له، فنقف عند الحبوبي لنرى ذلك السرّ الذي اضطرمت جوانحه بناره وأخذ لسانه بمناجاته والتضرع بين يديه، وفي ذات الوقت اندكاكه بالعمل الاجتماعي الإسلامي والجدّ واللهفة في الدفاع عن حقوق المظلومين والمستضعفين، إذن هذه هي ثنائية الحبوبي «فَناجَيْتَهُ سِرًّا وَعَمِلَ لَكَ جَهْراً»!.

فلا قيمة عند الحبوبي لمرارة الحياة الى جنب تلك اللحظات الجميلة التي يعيشها العبد بين يدي ربّه، ولا قيمة للحريّة التي تكون من غير العبوديّة المحضة لله سبحانه، ولا قيمة لعمران الدنيا مع خراب الآخرة، وستصنع هذه القيم الغضب الثوري عند السيّد العارف الحبوبي وسينتفض وهو ابن السبعين عاماً ممتشقاً سيف الجهاد ليعيش تلك الثنائية! ولسان حاله:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

قال رحمه الله في تخميس أربعة أبيات للشيخ حسن زاير دهام[1]:

وهادي رشاد يقتفي الحق إثره أبان سبيلاً يعبق الطيب نشره

فقل لامرئ (لم يشرح الله صدره)

سبيل (علي) شرف الله قدره سبيل (علي) طيب العبقان

* * *

فما نفحات الرند من نفحاته إذا نفحت بالطيب ست جهاته

وكم فاح بالمعتل من نسماته

يضوع عبيق المسك من حجراته كما ضاع نشراً نابت العلجان

* * *

خصيب ووجه الأرض ينصاح مجدباً

وينجح إن لم ينجح السعي مطلباً

ومذ شمت برقاً لم يكن منه خلباً

أنخت بجنبيه ركائب شزبا

(1) علي في الكتاب والسنة والأدب: حسين الشاكري: ج٥ ص٤٧.

فعدن سماناً، وانقلبت كسلطان

* * *

أما وأريج في شذى عرفه الشذي

ومرقد سر ما مشى فيه محتذي

لئن كان حبي من شظى النار منقذي

فكم في حماه يحتمي العاثر التذي

ألمت خطاياه عليه بنيران

تربيته لدى استاذه في الأخلاق:

تبدأ قصّة الحبوبي والأجيال المتأخرة من العرفاء الشامخين في سماء المعرفة من حيث قصّة الحائك أو ناسج البسط[1] مع السيّد علي الشوشتري، وليس المعنى أن طريق السير الى الله تعالى يبدأ من الناسج، كيف والعارف عينه على الله تعالى وأهل البيت عليهم السلام؟!، وإنما المقصود أن الجيل الأخير من الروحانيين كانت لهم سلسلة من الأساتذة والتعاهد بدايتها من السيد الشوشتري عن

(1) وفي بعض النقول أن اسمه كان الملاّ قلي جولي.

الناسج أو الحائك، وقصة ذلك رواها بعض الأجلاّء كالعلاّمة الطباطبائي في بعض المنسوب اليه في دروسه الأخلاقية، وشاهدها أن السيّد العلاّمة يشيد بالسيّد الحبوبي كأحد الشامخين في هذا المجال، فيقول: «إنَّ حقيقة العرفان مأثورة عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والطرق التي نشرت هذه الحقيقة بالتواتر تتجاوز المائة ... أمّا طريقتنا أي طريقة المرحوم الملاّ حسين قلي فهي لا تنتهي الى أيّ واحد منها.

وإجمال المطلب هو: قبل أكثر من مائة سنة كان يعيش في شوشتر[1] عالم جليل القدر، وكان هذا العالم مرجعاً للناس في القضاء والأُمور العامّة، ويدعي السيّد عليّ الشوشتريّ، فكان كباقي العلماء الأعلام متصدّياً للأمور العامّة من التدريس والقضاء والمرجعيّة الدينيّة. في أحد الايّام طرق بابه شخص وهو يقول: لي معك حاجة، عندما فتح السيّد بابه رأي نسّاجاً، فقال له: ماذا تريد؟ فأجاب بأنَّ الحكم الفلاني ـ الذي حكمت به طبق دعوي الشهود

(١) شوشتر –وهي (تستر) معرّبة: واقعة في الجنوب الغربي من ايران، قريبة من مدينتي دزفول والأهواز.

بملكيّة فلان للملك الفلاني ـ غير صحيح، وذلك الملك لطفل يتيم، وسنده مدفون في المحلّ الفلاني.

فما قمت به ليس صحيحاً، وليس هذا النهج نهجك. فيجيبه آية الله الشوشتريّ: أَوَقَعتُ في خطأ؟ فأجاب النسّاج: الكلام هو ما قلته، ثمّ انصرف. ففكّر آية الله السيّد الشوشتريّ طويلاً، وتساءل عمّن يكون هذا الرجل وماذا قال، ثمّ يقوم بالتحقيق ويتبيّن له أنّ سند ملكيّة الطفل مدفون في ذلك المكان، وأنّ الشهود على ملكيّة فلان شهود زور. فانتابه شعور بالخوف وقال في نفسه: ربّما كان الكثير من الأحكام التي أصدرتها من هذا القبيل، فأخذه الاضطراب والخوف. وفي الليلة التالية وفي نفس الوقت يطرق النسّاج الباب من جديد ويقول له: يا سيّد؛ ليس الطريق ما تسير إليه، وفي الليلة الثالثة تتكرّر هذه الواقعة بنفس الكيفيّة، ويقول له النسّاج: لا تتأخّر، اجمع الاثاث وبع البيت فوراً، ثمّ اتّجه الى النجف الاشرف، وافعل ما أقوله لك، وبعد ستّة أشهر كن بانتظاري في وادي السلام هناك.

فقام السيّد لوقته وعمل بالتعاليم، وباع البيت وجمع الأثاث ثمّ تهيّأ للسفر الى النجف، وفي اللحظة الأُولى من دخوله المدينة الشريفة يري الرجل ذاته عند طلوع الشمس في وادي السلام، وكأنّه خرج من بطن الأرض ليقف أمامه ويعطيه بعض التعليمات ثمّ يختفي. ويدخل المرحوم الشوشتريّ الى النجف الاشرف عاملاً بما يمليه عليه ذلك النسّاج ليصل بعدها الى درجة ومقام لا يمكن وصفهما «رضوان الله تعالى وسلامه عليه».

وكان السيّد عليّ الشوشتريّ ـ مراعاة للاحترام ـ يحضر دروس الفقه والأُصول عند الشيخ مرتضي الأنصاريّ الذي كان بدوره يحضر دروس السيّد الأُسبوعيّة في الأخلاق، وبعد وفاة الشيخ «رحمة الله عليه» يتصدّي السيّد الشوشتريّ «رحمة الله عليه» لإتمام الأبحاث التي انتهي إليها الشيخ، ولكنَّ الأجل لم يمهله طويلاً، فبعد ستّة أشهر يلتحق بالرفيق الأعلى. خلال هذه المدّة (الستّة أشهر) يكتب المرحوم الشوشتريّ ورقة الى أحد تلامذة الشيخ

الانصاريّ البارزين، المدعوّ الملاّ حسين قلي الدرجزينيّ[1] الهمدانيّ الذي كان له مع السيّد علاقة في أيّام المرحوم الانصاريّ وكان يستفيد من دروسه في الأخلاق والعرفان، وكان عازماً على التدريس وإتمام مباحث الشيخ التي كان يحرّرها بنفسه، وفي هذه الورقة يذكّره بأنّ نهجكم هذا ليس كاملاً، وأنّه ينبغي عليكم الحصول على المقامات العالية إضافة الى ذلك، غرضه من ذلك التعبير، إرشاده الى طريق الحقّ والحقيقة.

وتمرّ الايّام ليكون المرحوم الملاّ حسين قلي ـ الذي كان يستفيد قبل سنوات من وفاة العلاّمة الانصاريّ من محضر المرحوم السيّد عليّ في المعارف الإلهيّة ـ من أعاظم عصره وعجائب دهره في الأخلاق ومجاهدة النفس وكسب المعارف الإلهيّة. وقد ربّي تلامذة عظاماً، أصبح كلّ واحد منهم آية عظيمة وواحداً من أساطين المعرفة والتوحيد، ومن أبرزهم المرحوم الحاجّ الميرزا جواد الملكيّ التبريزيّ، والمرحوم السيّد أحمد الكربلائيّ

(1) درجزين: قرية تابعة من توابع مدينة همدان الواقعة في الشمال الغربي من ايران.

الطهرانيّ، والمرحوم السيّد محمّد سعيد الحبوبي، والمرحوم الحاجّ الشيخ محمّد البهاريّ.

ومن طلاّب مدرسة السيّد أحمد الكربلائيّ الأُستاذ الأعظم والعارف الأمثل المرحوم الحاجّ الميرزا عليّ القاضيّ التبريزيّ«رضوان الله عليه»»[1].

ومن الملاحظ أن السيّد الشوشتريّ لم يفارق حجّته بالحكم إلا بالوثيقة، مما يدلُّ على أن مسلكهم «رضوان الله عليهم» لم يكن مسلكاً دون تدقيق ولا يرسل الأمور دون تمحيص واستدلال، فهو على ما فيه من غرائب الروحانيات إلا أن مستنده العقل والشريعة لا كيفما اتفق.

وفي الوافي نقل الحديث القدسيّ: «يا أحمد عليك بالصمت فإن أعمر القلوب قلوب الصالحين والصامتين... فإذا أحبني أحببته وحببته إلى خلقي وأفتح عين قلبه إلى جلالي

(1) لب اللباب: ص١٤٢.

وعظمتي، فلا أخفي عليه علم خاصّة خلقي»[1].

ولقد كان المميّز في المرحوم الملاّ الهمداني (١٢٣٩ - ١٣١١ هـ) المنتهي نسبه الى الصحابي جابر الانصاري[2] هو ما نُقل عنه من أنه ربّى العشرات من أهل السير والسلوك، كان منهم عدداً من المجتهدين[3] وكانت له حالات معنوية عجيبة تعكس تمرّسه في المراقبة والمحاسبة ومكنته القويّة في مجال تربية النفوس، وقد قضى الشطر الأكبر من عمره في تهذيب المستعدين والمشتغلين بالتربية والسلوك.

وقد كان ثّلة من طلاّبه من الفقهاء اللامعين والمجتهدين الأفذاذ، ولهم شروح وسعة صدر في الفقه والأصول، وكذلك كان لهم شأن في تغييرات مهمّة في العالم الإسلامي من حيث نباهتهم السياسية وجهادهم الثوري، كما هو الحال في سيّدنا الحبوبي وغيره، وهذا يدلّ على جمعهم لمراتب الظاهر والباطن، فالإخلاص

(١) الوافي: ج٢٦ ص١٤٧.

(٢) انظر: مستدرك سفينة البحار: ج٥ ص٢٧٠.

(٣) انظر الفلم الوثائقي: الأوتاد الخاص بحياة الملاّ حسين قلي.

في العبادة كما ندب إليه العقل والنقل، ومراقبة الحضور التام بين يدي الله تعالى ينقل العبد الى هذه المراتب السنية.

وكل هذا ليس بدعاً من القول، فقد شدد عليه أئمة الهدى عليهم السلام، فعن الصادق عليه السلام: «إِنَّ آيَةَ الْكَذَّابِ بِأَنْ يُخْبِرَكَ خَبَرَ السَّمَاءِ والأَرْض والْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ فَإِذَا سَأَلْتَه عَنْ حَرَامِ اللَّه وحَلَالِه لَمْ يَكُنْ عِنْدَه شَيْءٌ»[1].

ولهذا يظهر من بعض الكلمات أن الملاّ حسين قلي كان يشترط في تحصيل المعارف الإلهية العميقة كون الطالب مشتغلاً ومثابراً في التحصيلات الفقهية والأصولية، فإن الموازنة بين الباطن والظاهر، وفي الالتزامات الذوقية مع فيها من الاسترخاء والسكون والتلذذ قد يؤدي الى التماهي مع هذه الحالات الى حد التسويف في مساعدة الآخرين والاختلاط معهم والدفاع عن حقوقهم، والأمر يتضمن ما هو أعمق من ذلك، ولذلك فالجمع بين التفقه والتزكية أكثر من ضروري لمن أراد الكمال.

(1) الكافي: ج٢ ص٣٤٠.

يقول سماحة الحاج الشيخ حبيب الكاظمي: «إنّ الأنس بالحق - وخاصة في حالاته الشديدة - يهيئ العبد لحالة من التثاقل من الخلق، بداهةً أنّ الألذ يُشغل عن اللذيذ، فكيف إذا فقد اللذيذ لذّته؟ ولكن ذلك لا يعني حالة النفور والتعالي الذي يفوّت عليه واجباته الاجتماعية، إضافة إلى أنّ نفس هذه الحالة من النفور سلبيةٌ في حد نفسها، والعلاج الجامع لهذه الحالة: هو النظرة الطولية إلى ما سوى الله في جنب الله تعالى، إذ أنّ تلك الحالة من النفور، نتيجةٌ طبيعيةٌ للإحساس بالنديّة بين المحبوب وما يُشغل عنه، فإذا لم يعد الغير شاغلاً ما صار نداً، وإذا لم يكن نداً ما عاد منفوراً»[1].

وتابع السيّد الحبوبي استاذه الملاّ حسين قلي كأستاذ له أهليّة التربية بحيث كانت له الوثاقة به في إيصال البيانات الشرعية والرياضات المنضبطة بالنصوص الواردة عن اهل البيت عليهم السلام حتى أدركه من حسن الأخلاق وحب الله تعالى والدفاع عن الشريعة ما يشار اليه.

(١) الوصايا الأربعون لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

والوثاقة بالأستاذ في العرفان الشيعي لا تعني الانقطاع اليه على نحو الاستقلال في التعبير عن البيانات الذوقية أو تكليف الناس بما لا يطاق أو بما يخالف العقل والنقل، أو حتى المبالغة في متابعته وقيمته بمعزل عن تعاليم الأنبياء والمعصومين عليهم السلام، بل الذي يمكن أن يقال أن حصول الوثوق به هو من حيث كون كلماته مطابقة تماماً لظاهر الشريعة المقدّسة أو ما يؤيد كلامه بها، فلا عبرة بغير القرآن والمعصومين عليهم السلام، وكذا أن لا تكون مخالفة للعقل الصريح الواضح، وبتعبير السيّد الشهيد الصدر قدس سره «الثقة بالمربي بالمقدار الكافي، بحيث يصلح أن يلقي الفرد بكلكله عليه ويوكل مستقبله اليه، ان الفرد مربوط بالمربي بمقدار ما هو مربوط بالله سبحانه ومن اجله جلّ جلاله يأخذ بهذا المنهج أو ذاك ليصل الى المقامات الرفيعة والدرجات العلى»[1].

وطبعاً فإن ما ذكره الشهيد الصدر رحمه الله من ضمانات لمعرفة الأستاذ هو جزء من هذه الضمانات، والصحيح التام ما مرّ من

(1) قناديل العارفين: ص١٥١.

مطابقتها للشرع الحنيف فلا يزل عنها بمقدار شعرة وإلا فإنه لا قيمة له، وكذا العقل.

وفي معنى كلام للشيخ بهجت رحمه الله: «إن من لم يكن له حال المراقبة المتصلة لأفعاله وأقواله وباطنه طيلة اليوم هذا لا تنفع معه مواعظ النبي صلى الله عليه وآله، ومن كانت له تلك الحالة فحتى الحائط سيكون له أستاذ حينئذ». وهو تطبيق لما ورد عنهم «عليهم أفضل الصلاة وأتمّ السلام»: «واعلموا أنه من لم يعن على نفسه حتى يكون له منها واعظ وزاجر لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ»[1].

الرياضات الشرعية:

ويظهر أيضاً اهتمام الأستاذ الملاّ حسين قلي بطلاّبه على النحو الذي يشجعهم على الرياضات الشرعية، والتكامل في جنبة الخدمة الاجتماعية جنباً الى العرفان، ومن ذلك قصّة مهمّة تتعلّق بالسيّد الحبوبي، إذ المعروف أن الملاّ حسين كان يسكت اثناء التدريس قليلاً لئلا يكون الاشتغال بالمطالب العلميّة من الكلام

(1) نهج البلاغة: الخطبة: ٩٠.

الذي خرج عن حده المناسب بأن ينسي الذكر الخاص لله تعالى، ووسط هذه الحيثيات والكلام بقدر ينقل حفيد الملاّ حسين قلي وهو محمد حسين مجاهد «أن جدّه ذات يوم كان يلقي الدروس وفجأة أثناء التدريس قال: أحسنت يا سيّد سعيد، أحسنت يا سيّد سعيد، وعندما رجع الطلبة الى المرحوم الحبوبي وأخبروه بما قاله الآخوند الملاّ قلي ذلك اليوم وسألوه عن السبب وما الذي حصل، فقال: كنت قادماً من كربلاء الى النجف وركبت زورقاً، وكان بجواري رجل نام وألقى برأسه على كتفي وجرى بصاقه على ملابسي، وأردت حينها أن أوقظه ولعدّة مرّات، إلا أني صبرت ولم أقل شيئاً حتى وصلنا النجف ونزل من القارب»[1].

وهذا التزام لائق بالسيّد الحبوبي وثناء استاذه عليه تطبيقاً للأحاديث الشريفة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في طاعته فلا تستصغرن شيئاً من طاعته، فربما وافق رضاه وأنت لا تعلم. وأخفى سخطه في

(1) عن الفلم الوثائقي الأوتاد، توثيق لحياة الشيخ حسين قلي الهمداني.

معصيته فلا تستصغرن شيئاً من معصيته، فربما وافق سخطه معصيته وأنت لا تعلم. وأخفى إجابته في دعوته فلا تستصغرن شيئاً من دعائه، فربما وافق إجابته وأنت لا تعلم. وأخفى وليه في عبادة فلا تستصغرن عبداً من عبيد الله، فربما يكون وليه وأنت لا تعلم»[1].

ذلك أن الخلق عيال الله والصبر على أذاهم يلهم الإنسان الكثير من الترقّي الروحي حتى يصل الأمر الى التلذذ في خدمتهم، والبعض يتصوّر أن التربية الإيمانية والحصول على التقوى والذكر المتصل لله تعالى.. كلّه يأتي بالعزلة، وهجران الدنيا، ومنها الزوجة والأولاد..

إن صيرورة العبد هارباً من زوجته وأولاده والناس جميعاً، يجعل العبد متقى منه لا متقياً.. فإن من المعلوم أن عناصر الإيمان العالية تتركز في شخصية المؤمن من خلال المعاشرة والصبر والحلم وكظم الغيظ ومساعدة الناس والقيام بأمر الزوجة والأولاد، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر..

(1) الخصال: ص ٢١٠.

وفي وصية لبعض السالكين ممن تتصل تعاليمهم بمدرسة الملاّ حسين قلي وتلامذتهم: «اعتبر هؤلاء المأمورين بالمعروف والمنهيين عن المنكر كبعض عائلتك، فإن كثيراً من السالكين في طريق الحق (مبتلون) بالعوائل وقد يكون الإنسان في حال يحسّ بها أن (العائلة) تضرّه وتنفعه فيؤسفه ذلك كثيراً ويغيضه..

إلا انه سوف يشعر بعد ذلك بحال أخرى وهي أن العناية بالعائلة (في سبيل الله) والصبر على بلاويها وشكاويها ومضاعفاتها مع التسليم والرضا إنما هو من (الجهاد الأكبر) نفسه وقد ورد عن ابي حمزة قال: قال ابو عبد الله عليه السلام: «ما من جرعة يتجرعها العبد أحب إلى الله عز وجل جرعة غيظ يتجرعها عند ترددها في قلبه، إما بصبر وإما بحلم»[1][2].

إن أصل هذه المدرسة والتعاليم التي كان يستقيها السيّد الحبوبي لا زالت في الجيل المتأخر من العلماء والأخلاقيين، وهم يعلنون الكثير من التعاليم السلوكية التي كانوا يتواصون على

(1) الكافي: ج٢ ص١١١.

(2) قناديل العارفين: ص٦٨.

تعليمها وتطبيقها، ونلاحظ ذلك واضحاً في حال الشيخ بهجت رحمه الله الذي «كان ينصح من يطلب منه برنامجاً لتهذيب النفس أن يفتح أبواب (آداب العشرة) من كتاب الحج وكتاب (جهاد النفس) وكتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في وسائل الشيعة ويلتقط حديثاً ثم لا يفارقه إلى غيره حتى يعوّد نفسه على مضمونه، وإذا احتاج المبتدئون إلى شرح فليستفيدوا من كتاب (جامع السعادات) للنراقي و(المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء) للفيض الكاشاني «قدس الله سريهما»»[1].

فالكلمات الأخلاقية المركّزة والتي تعبّر عن جوهر السلوك الى الله تعالى مصدرها واحد، وينبوعها واحد، فالتعاليم التي استقاها السيّد الحبوبي من استاذه الملاّ حسين قلي لا زالت حاضرة في ألسنة الخلف منهم.

(١) الدروس الرسالية من حياة الشهيدين الصدرين «قدّس سريهما»، ملحق خاص بتأبين الشيخ بهجت قدس سره، بتصرف يسير.

الوعي الإسلامي:

إن التعامل الشرعي مع الأحداث وفي ضوء التوجيهات الشرعيّة سيصقل الروح ليجعلها شفافة جدّاً الى الحد الذي يؤهلها للتلقي والفيض الخاص، ومن أراد الله تعالى عليه أن يبدأ بتهذيب النفس وتزكيتها بالتعاليم الشرعيّة، وهو ما أثار اعتناء الملاّ حسين قلي لدى قطعه للدرس والإشادة بموقف السيّد الحبوبي، ومن هنا كانت التعاليم السلوكية لا توجّه الإنسان نحو الخمول والبرود والتكاسل، أو العزلة والتنطع والتقشف غير المبرر، وفي الواقع نجد العكس؛ ذلك أن جيلاً من العرفاء الشامخين قد اخذوا جانب المرجعية الثورية والقيادات الثائرة ومعظم هؤلاء مات ثائراً أو شهيداً كالشاه آبادي والسيّد دستغيب والسيّد الحبوبي والشيخ مطهري والسيّد الخميني والسيّد الشهيد الصدر الثاني «رحمة الله عليهم».

وفي تعليق للسيّد الشهيد الصدر حول هذا المعنى يقول فيه: «للعلماء العاملين معنيان يستعملها طائفتان من الناس: **المعنى**

الاول: العلماء العاملين بالجهاد الأصغر[1]، وهم الذين يتعبون على تربية المجتمع وإصلاحه، بغض النظر عن إصلاح النفوس.

المعنى الثاني: العلماء العاملين بالجهاد الأكبر وهم الذين يتعبون على أنفسهم وأنفس غيرهم - لو صح التعبير - في إخراجها من الظلمات الى النور وهدايتهم الى الصراط المستقيم.

فطائفة (الوعي الإسلامي) تتبنى المعنى الأول فقط، كما أن (الصوفية) ومن إليهم يتبنون المعنى الثاني فقط، وأنت تعلم أن الاختصاص بأحد المعنيين غير صحيح، بل المجالان قد يكون محل التكليف الإلهي بالإصلاح، كل واحد في حدود شروطه ومواصفاته»[2].

وبتعبير سماحة الشيخ المربي حبيب الكاظمي: أنه لا ينبغي

(١) عن أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقومٍ قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس». معاني الأخبار: ص١٦٠.

(٢) قناديل: ص١٤٨.

«الانشغال بالنفس عن الغير، وكذلك العكس، فالكثيرون لا يعرفون أوليات الشريعة في حلالها وحرامها، فشكر نعمة الهداية يقتضي الأخذ بيد من يمكن هدايته وعلى الخصوص الأقربين، فمن أفضل سبل التقرب إلى الحق المتعال هو تحبيب العباد إليه تعالى بذكر آلائه ونعمه، ومن ثم تخليصهم مما تورطوا فيه موجبات البعد عن الحق المتعال»[1].

ولذا فإن السيّد الحبوبي ومن هذا المنطلق كان من العلماء الإصلاحيين والمثابرين على نشر الوعي الإسلامي وحل مشاكل الناس الى جانب اهتمامه بالتزكية والتهذيب، ومن هذا ما كان عام ١٢٩١ هـ وعلى أثر مصالحة عشائرية بين السادة آل زوين وبعض العشائر الفراتية، فقد كان الحبوبي عريف حفل الصلح[2].

وفي مرّة عرض عليه العثمانيون بعض المساعدات اثناء الحرب مع البريطانيين، فهاج قائلاً: «اعتبروني جندياً من الجند

(١) الوصايا الأربعون، لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

(٢) انظر معارف الرجال للشيخ محمد حرز الدين.

آكل مما يأكلون وأشرب مما يشربون، وجهاد النفس أفضل»[1].

وقد وافته المنيّة -وهو في هذا الخط الجهادي والدفاع عن حقوق المستضعفين- على أثر النكبة النفسية التي ألمت به جرّاء انسحاب الجيش العثماني ونكول بعض المجاهدين عنه في الشعيبة وخسروا على أثر ذلك الآلاف من المقاتلين في طريق رجوعه من الجهاد في البصرة، فعرجت روحه الى بارئها في الناصرية يوم الاربعاء من شعبان ١٣٣٣ هـ - ١٦ حزيران ١٩١٥.

يقول سماحة الشيخ الحاج حبيب الكاظمي: «إن من موجبات منّة الحق على عبده، هو الاهتمام بحوائج العباد الذين هم عيال الله تعالى، وإدخال السرور عليهم: سواء فيما يتعلق بالمادة أو المعنى. ومن المعلوم الأثر الأعظم لإدخال السرور على الملك الحق المبين، وعلى العبد أن يسعى للتعرف على حوائج الخلق، قبل ابتلائهم بذل السؤال، ومن اللازم هنا الالتفات لعظمة تأثير تفريج الكروب عن

(١) كاظم اليزدي: سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه، كامل سلمان الجبوري، ص٢١٧.

النفوس في شرح الصدور»[1].

أقول: إن البلاغة هي التعبير بأبسط الألفاظ وأجملها وأكثرها اختصاراً عن أعقدها وأطولها، وما مرّ من كلمة الشيخ حصيلة كلمات أهل العصمة عليهم السلام، وينبغي على العبد أن يطنب في الإلحاح من هذا الباب ولعلَّ طارقه في مظان أن يُفتح له.

فالعرفان إذن مجموعة تعاليم شرعية لكل الحياة وهكذا أرادوها أهل البيت عليهم السلام، ولذا فإن كل ما ليس بشرعي فلا قيمة له، وفي هذا الإطار هناك علاقة جوهريّة مع الواقع والحياة، ويُنصح كل من أراد الاستفادة بالتعاليم السلوكية ووصايا المربّين الناصحين «بضرورة كتمان العلم عن غير أهله خشية أن يحمّل مغامرٌ نفسه فوق ما لا يطيق ..و... عدم تحميل النفس ما لا تطيق وان يتركوا أي عمل يسبب لهم ضيقاً وحرجاً وأن يعملوا بالتقية من النفس كما

(١) الوصايا الأربعون، لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

يعملوا بها من الآخرين، وأن يعلموا انهم أساؤا التطبيق كلما وجدوا انفسهم بعيدين عن الاتجاه الإسلامي العام الذي سار عليه المتدينون تبعاً لائمتهم عليهم السلام»[1].

ولهذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا عبادة اللَّه إلى عباد اللَّه فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى»[2].

فإن المنبت وهو الذي انقطعت به الدابة في صحراء قاحلة، فأخذ يقسو عليها ولا يعطيها فرصة للراحة، ومن ثم فقدت دابته نتيجة سياسته لها بالسوط والتعنيف كل قوتها في وسط الصحراء، ولهذا فهو لم يقطع السفر ولم يعبر الى ضفة السلامة وبنفس الوقت لم يبقَ له ظهراً ليركبه!.

عبقري التوحيد:

وكان السيّد الحبوبي عبقري التوحيد الإسلامي بتعبير السيّد

---

(1) قناديل العارفين: ص١٣.

(2) الوافي: ج٤ ص٣٥٩.

جمال الدين الأفغاني[1]، وقد مزج رحمه الله الوطن بالإيمان، وصارت تلك الثقافة الجهادية حصيلة العرفان الشيعي الناقد والثوري، حيث كان يقول: «من لا وطن له لا دين له»[2]. كيف لا؟ وهو يسمع قول أمير المؤمنين عليه السلام: «عُمرت البُلدان بحبِّ الأوطان»[3] و«من كرم المرء بكاؤه على ما مضى من زمانه، وحنينه الى أوطانه، وحِفظه قديم إخوانه»[4].

فهذا الإيمان بالوطن اشتبك مع حب الله تعالى ليتمثل في صورة الرجل المجاهد النبيل صاحب الفضائل، فقد حمل رحمه الله نفسه الثقيلة بعلل وطنه ومشكلات عصره على أكفه المتشققة بآثار الجهاد ومقابض السلاح، ليرمي بها في مهاوي النزال والصعاب، وعندما عرضوا على السيّد الحبوبي استضافته في الناصرية لاح جلياً

(١) دور السيّد الحبوبيّ في استنهاض عشائر المنتفق في التصدي للاحتلال البريطاني عام ١٩١٥ م، شاكر حسين دمدوم.

(٢) السابق.

(٣) بحار الأنوار: ج٧٨ ص٤٥.

(٤) السابق: ج٧٤ ص٢٦٤.

ما يلوج في خاطر ذلك العارف الفذ، حينما تنادى قائلاً: «شتان الحرب والترف»![1].

فقد رفض بهارج الدنيا وزينتها التي ألقت بكلّها عليه، وتنفس صعداء الواجب الإلهي على الرغم من كبر سنّه وشيبته البادية في محياه الصبيح، وراح يقاتل ويصلّي في الناس جماعة ويخطب فيهم ويلهبهم الحماسة ويثير الروح الدينية والوطنية، وصقل النفوس بالأمجاد العربية والأخلاق الكريمة والالتزام المبدئي في مواقف الحياة[2].

من دروس الإباء:

كان رحمه الله أبيّ النفس عالي الهمّة، وكأنه يذكرنا بهذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي

(١) دور السيّد الحبوبيّ في استنهاض عشائر المنتفق.

(٢) انظر: A.T.Barkr ,The Neglected War , Mesopotamia. عن السابق.

التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١].

فمنه ما يُحكى أن القيادة العثمانية أعطته ألف ليرة أثناء الحرب مع البريطانيين، فرفضها قائلاً: «اني مكلف بالتضحية في مالي ونفسي، فإذا نفذ المال بقيت نوبة النفس ... ولا اسمح لكل أحد أن يفاتحني في هذا الشأن»[١].

وتلوح لنا من موقفه هذا موقف قرينه في الأدب والنسب والفقه وحفظ القرآن الكريم[٢] وهو الشريف الرضي[٣]، فقد كان

(١) كاظم اليزدي: سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه، كامل سلمان الجبوري، ص٢١٧.

(٢) ترجم الاستاذ حسين الشاكري للسيّد الحبوبيّ فقال: «السيّد محمد سعيد ابن السيّد محمود ابن السيّد قاسم الحبوبيّ... حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وهو لما يزل طفلاً». علي في الكتاب والسنة والأدب، ج٥ ص٤٦.

(٣) عن ابن أبي الحديد في شرح النهج: «حفظ الرضي القرآن بعد أن جاوز ثلاثين سنة في مدة يسيرة وعرف من الفقه والفرائض طرفاً قوياً، وكان عالماً أديباً، وشاعراً مفلقاً، فصيح النظم ضخم الألفاظ قادراً على القريض ... وكان عفيفاً شريف النفس عالي الهمة مستلزماً بالدين وقوانينه، ولم يقبل من أحد صلة ولا جائزة حتى أنه ردَّ صلات أبيه». الغدير: ج٤ ص٢٠٣.

الحبوبي يحاكيه ويلتقط منه ويتشيع له بما يترقق له في شعره وغزله ومركباته الصورية والجمالية فضلاً عن فقاهته ووجاهته الدينية، وإباءه الذي كان مضرب الأمثال.

ومع هذا فإنّه ليس عجيباً على السيّد الحبوبي أن تأبى نفسه التوّاقة الى خالص جزاء ربها من غير أن تمد العين الى غيره أو تنقطع الى سواه، كل هذا تأسياً بمن اقتدى بهم من أئمة الهدى عليهم السلام والصالحين من السلف والخلف.

ولا غرو من تلك النفوس الوالهة، فقد عشقوا الله تعالى وتجلّى في قلوبهم فرأوا الحق والصدق والعفاف بضوء ذلك النور الإلهي، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : ٢٩]، فقطعوا أنفسهم عن الدنيا وصاروا روّاد الآخرة، وأنسوا بمقام القرب واختارهم الله سبحانه ليكونوا أعلاماً للصلاح، فتوكلوا عليه في كل شؤونهم، وأعطاهم من جماله وهيبته وحببهم في نفوس خلقه، كيف لا؟ وسيّدنا الحبوبي يتمتم بفقرات الدعاء في زيارة الأمير عليه السلام: «اللّهُمَّ فَاجْعَلْ نَفْسِي مُطْمَئِنَّةً بِقَدَرِكَ...مَحْبُوبَةً

فِي أَرْضِكَ وَسَمائِكَ»[1]، وفي الدعاء: «وَأَلْحِقْنا بِعِبادِكَ الَّذِينَ هُمْ بِالبِدارِ إِلَيْكَ يُسارِعُونَ... الَّذِينَ صَفَّيْتَ لَهُمْ المَشارِبَ وَبَلَّغْتَهُمُ الرَّغائِبَ ... وَمَلاتَ لَهُمْ ضَمائِرَهُمْ مِنْ حُبِّكَ وَرَوَّيْتَهُمْ مِنْ صافِي شِرْبِكَ؛ فَبِكَ إِلى لَذِيذِ مُناجاتِكَ وَصَلُوا وَمِنْكَ أَقْصى مَقاصِدِهِمْ حَصَلُوا»![2].

(1) مفاتيح الجنان: ص٥٢٧.

(2) مفاتيح الجنان: ص٢١٧.

الشعر العرفاني عند السيّد الحبوبي:

ما من شائبة من أن السيّد الحبوبي كان يترفض في شعره[1] الى الحد الذي صار من رقّته وعذوبته وجمال ألفاظه وحسن تعبيره وسبك معانيه قريناً لفطاحل الشعراء، وإن عُدّوا لا يُفقدوه بينهم، وموشحاته أشهر من نار على علم.

ولا ريب أيضاً في أن الشعر كان إحساس الأمّة الإسلامية ولا زال، فتنتفض المشاعر لتسبك صورة الملاحم وتعيد الأمجاد المهدورة وترسم صورة الجرح الإسلامي الذي لم يندمل جرّاء

(١) «كانت الحوزة العلمية الشريفة وشعراء الشيعة في حواضر العلم والأدب كالنجف وكربلاء والحلة وبغداد هم رواد الأدب العربي ومفاخره، وفي الوقت الذي كانت تعيش المدن العربية الأخرى كدمشق و القاهرة والحجاز وفاس و طنجة (الفترة المظلمة) في العهد العثماني كما يقسّمونها ضمن عصور الأدب العربي، كانت الحواضر الشيعية مزدهرة بسوق الأدب وبرز المئات من كبار الشعراء والأدباء في تلك القرون منهم وخلّدتهم معاجم الرجال والأدب، وبلغ عندهم سمو المعنى ولطافة السبك درجة بحيث إذا أراد نقّاد الأدب أن يمدحوا شاعراً فإنهم يقولون (كان يترفض في شعره) أي ينحو منحى الرافضة –وهم الشيعة في مصطلحهم– في هذا الرقي». القضايا العربية في وجدان النجف الأشرف، من خطب الشيخ محمد اليعقوبي، ص١٢٤.

السياسات الماكرة لقوى الشر في كل زمان.

ومن هنا برع السيّد الحبوبي في سبك المعاني التي يريدها في أجزل ما يُتصوّر، وجمال قصائده مطنب في أرجاء صدورها وأعجازها ولا يتوصف لمثله إلا من يعرف ذلك! ولكن المهم منه الآن هو الشعر العرفاني الذي انتهجه رحمه الله، وعموماً فإن عفة السيّد الجليل الحبوبي ودينه وفقاهته جعل من شعره حقّاً لا يُقرن الى باطل ولا يليق إلا بشأن نبيل فاضل، فقد عرف السلف والخلف تقواه واشتهر بعرفانه وذوقه وهو من هذا الرعيل الذي لا يرمي خدره النظر، ولذا فقد صُنّف شعره الغزلي في العرفاني.

فشتان الشَّيْب والطرب، وقد كان العرب الأقحاح يذمّون الطرب من مثل الرجل ذي الشيبة. وفي قصّة الكميت الاسدي (٦٠-١٢٦هـ) في هاشمياته روى أبو الفرج في الأغاني، قال: «قال: حدثنا محمد بن عليّ النّوافليّ، قال: سمعت أبي يقول:

لمّا قال الكميت بن زيد الشعر كان أول ما قال الهاشميّات، فسترها، ثم أتى الفرزدق بن غالب، فقال له: يا أبا فراس، إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسديّ. قال له:

صدقت، أنت ابن أخي، فما حاجتك؟ قال: نفث على لساني فقلت شعراً، فأحببت أن أعرضه عليك؛ فإن كان حسنا أمرتني بإذاعته، وإن كان قبيحا أمرتني بستره، وكنت أولى من ستره عليّ. فقال له الفرزدق: أمّا عقلك فحسن، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فانشدني ما قلت، فأنشده:

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

قال: فقال لي: فيم تطرب يا بن أخي؟ فقال:

ولا لعباً مني وذو الشيب[1] يلعب

فقال: بلى يا بن أخي، فالعب، فإنك في أوان اللعب، فقال:

ولم يلهني دار ولا رسم منزل ولم يتطرّبني بنان مخضّب

فقال: ما يطربك يا بن أخي؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشية أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب؟

فقال: أجل، لا تتطيّر، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والنّهى وخير بني حوّاء والخير يطلب

(١) قال في مجمع البيان: «والمعنى: أو ذو الشيب يلعب تناكراً لذلك». ج٨ ص٢٥٧.

فقال: ومن هؤلاء؟ ويحك! فقال:

إلى النّفر البيض الَّذين بحبّهم إلى اللّه فيمـــا نابنـــي أتقـرّب

قال: أرحني ويحك! من هؤلاء؟ قال:

بني هاشم رهط النبيّ فإننـــي بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

...فقال له الفردزق: بابن أخي، أذع ثم أذع؛ فأنت واللّه أشعر من مضى، وأشعر من بقى»[1].

ومن لطيف ما استدلَّ به في «ما وراء الفقه» على رجحان الشعر بالحق وجوازه مطلقاً هو «الإجماع والسيرة، فإن كثيراً من العلماء والفقهاء والمتدينين وأصحاب الكرامات هم من الشعراء بل من أعاظمهم ومن يشار بالبنان إليه منهم....من أشهرهم الشريف الرضي والشريف المرتضى ... والسيّد محمد سعيد الحبوبي»[2].

وهناك قصّة مهمّة في المقام نقلها السيّد الشهيد الصدر رحمه الله، وحاصلها: «أن المرحوم محمد سعيد الحبوبي قدس سره كان شاعراً في شبابه، وكان سابقاً يعتكف في مسجد الكوفة وكان

(١) انظر: الأغاني: ج١٧ ص٢٣.

(٢) ما وراء الفقه للسيّد الشهيد محمد الصدر رحمه الله: ج١٠ ص١١١.

يقضي هناك ثلاثة أيام بلياليها يُصلح شِعره، في يوم ما دخل عليه شخص كأنه أحد المعتكفين لكنه كان انساناً أخلاقياً، على كل حال من النعم أن الإنسان يُرزق بإنسان أخلاقي فيسمع موعظته أي يتعظ بموعظته، ثم قال هذا الشخص للمرحوم الحبوبي: هل أصلحت نفسك كما أصلحت شِعرك؟ انقلب السيد الحبوبي من رجل كذائي الى رجل كذائي، ومات وهو متقشف متبرأ من الدنيا وما فيها ومن فيها، انقلب من عالم اللفظ الى عالم المعنى إن صح التعبير»[1].

وقد يرد على القصّة إشكال مفاده: إن السيّد الحبوبي إنما هجر الشعر عندما ناهز الخمسين على ما حكاه محمد مهدي البصير[2] وهذا لا ينسجم مع القصّة التي تتحدث عن تركه للشعر في شبابه.

وجوابه واضح، فالقصّة لا تتحدث عن هجرانه الشعر بل كان هذا تنبيهاً على انشغاله –مع طيب سريرته التي آلت اليه عاقبته

(1) محاضرة حول الموعظة، تسجيل صوتي، بتصرف يسير.

(2) بحث بعنوان: الحبوبيّ من رواد نهضة العراق الأدبية، محمد مهدي البصير.

وسرعة تأثره للموعظة وتوفيقه لمثل المقام- فلا يحسن بمثله الانشغال عن غير الله تعالى بما طاب من فضول الكلام ونسج الخيال. وسيأتي مزيد بيان في ذلك.

وعلى كل حال فيبدو أن السيّد الحبوبي اتعظ بما اتعظ به بشر الحافي، إذ صنعت منه هذه الكلمة ذلك الرجل الخلي من الدنيا والهوى والرياء والعجب والمفاخر، لقد اتجه قلبه لله تعالى في لحظة واحدة «وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه»[1].

وبتعبير السيّد حبيب الله الخوئي رحمه الله: «الظاهر أنّ المراد بالأبواب مقامات العارفين ودرجات السّالكين اللَّاتى بعضها فوق بعض، وأراد بتدافعها إيّاه ترقيه من مقام إلى مقام ومن درجة إلى درجة إلى أن ينتهى ترقّياته إلى مرتبة حقّ اليقين.

(1) نهج البلاغة: الخطبة: ٢٢٠.

فوصل به الصراط الأقوم إلى باب اللّه الأعظم الّذى من دخل منه كان سالماً في الدّنيا من المعاطب والمهالك ومن الزّيغ والضّلال، وسالماً في الآخرة من الخزي والنّكال، وهو في الحقيقة باب دار السّلام الموعود للمذكّرين في قوله: ﴿وَهَـٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦-١٢٧]. والمدعوّ إليه في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس : ٢٥]، أي دار السلامة الدّائمة من كلّ آفة وبليّة ممّا يلقاه أهل النار والعذاب. ووصل به أيضاً إلى دار الإقامة وهي دار المخلصين في التّوحيد في الدّنيا والمقيمين عليه وهم ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠]، والجنّات المخصوصة في الآخرة وهي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دارَ

الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِه لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٣-٣٤].

قال في التّفسير: جنّات عدن أي جنّات إقامة وخلد وهي بطنان الجنّة أي وسطها، وقيل: هي مدينة في الجنّة فيها الرّسل والأنبياء والشهداء وأئمّة الهدى والناس حولهم والجنان حولها، وقيل: إنّ عدن أعلى درجة في الجنّة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطّاة من يوم خلقها اللَّه حتّى ينزلها أهلها الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون ومن شاء اللَّه.

«وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والرّاحة» يعني أنّه بعد اندفاعه إلى باب السلامة ودار الإقامة الَّتي هي مقرّ الأمن والرّاحة استقرّ فيها، وثبوت رجليه كناية عنه وحصل له برد اليقين الموجب للطمأنينة الكاملة وهو منتهى سير السالكين وغاية غايات المريدين وآخر مقامات العارفين، وأعلى درجات المقرّبين»[1].

(1) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: حبيب الله الخوئي: ج١٤ ص٢٠٤.

حق اليقين:

قال السيّد الحبوبي ﵀:

فلم نجتل النار التي قال خابطٌ
من الناس حسبي أن رأيت دخاناً
وإن لمعت فاقصد لمشرق ضوئها
وام شروق الضوء لا اللمعانا
ولا يختلسك الوهم دون مكانها
فثم وإلا لا تحل مكاناً

ويريد السيّد ﵀ من هذه الأبيات ما في الآيات الكريمة: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ. ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧]. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة : ٩٥].

فإنّ للإنسان هويّة مجرّدة عن المكان والزمان، وهي من سنخ المجردات اللطيفة والروحانيات العرية عن المادة والماديات، ولها قابلية الترقي في الكمالات والإيمان درجة درجة، والى هذا يشير المحقق الطوسي ﵀ في بعض كلماته: «إن مراتب المعرفة

مثل مراتب النار مثلاً، وإن أدناها من سمع أن في الوجود شيئاً يعدم كلّ شيء يلاقيه، ويظهر أثره في كل شيء يحاذيه، ويسمى ذلك الموجود ناراً، ونظير هذه المرتبة في معرفة اللّه تعالى معرفة المقلدين الذين صدّقوا بالدين من دون وقوف على الحجّة، وأعلى منها مرتبة من وصل إليه دخان النار وعلم أنه لا بد له من مؤثر، فحكم بذات لها أثر هو الدخان، ونظير هذه المرتبة في معرفة اللّه معرفة أهل النظر والاستدلال، الذين حكموا بالبراهين القاطعة على وجود الصانع، وأعلى منها مرتبة من أحسّ بحرارة النار بحسب مجاورتها وشاهد الموجودات بنورها وانتفع بذلك الأثر. ونظير هذه المرتبة في معرفة اللّه معرفة المؤمنين المخلصين، الذين اطمأنت قلوبهم باللّه وتيقّنوا أن اللّه نور السماوات والأرض كما وصف به نفسه، وأعلى منها مرتبة من احترق بالنار بكليته وتلاشى فيها بجملته ونظير هذه المرتبة في معرفة اللّه معرفة أهل الشهود والفناء في اللّه وهي الدرجة العليا والمرتبة القصوى، رزقنا اللّه الوصول

إليها والوقوف عليها بمنّه وكرمه»[1].

وعن أبي الحسن عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قسم في الناس شيء أقل من اليقين»[2].

فاليقين هنا هو ما وراء كشف حجاب الريب عن النفس والذي يتأتى من رؤية القلب للحقائق التي يؤمن بها، ويصفو من مزاج المادة ويصفو من ضجيج العوالم الدنية ليعرج في سماء المعرفة الى برد الإيمان والنظر في الحقائق عن قرب ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي الدعاء: «ما أَلَذَّ خَواطِرَ الاِلْهامِ بِذِكْرِكَ عَلى القُلُوبِ! وَما أَحْلى المَسِيرَ إِلَيْكَ بِالاَوْهامِ فِي مَسالِكِ الغُيُوبِ! وَما أَطْيَبَ طَعْمَ حُبِّكَ وَما أَعْذَبَ شِرْبَ قُرْبِكَ!»[3].

«إِلهِي فَاجْعَلْنا مِنَ الَّذِينَ تَرَسَّخَتْ أَشْجارُ الشَّوْقِ إِلَيْكَ فِي حَدائِقِ صُدُورِهِمْ وَأَخَذَتْ لَوْعَةُ مَحَبَّتِكَ بِمَجامِعِ قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ إِلى

(1) انظر مرآة العقول: ج٧ ص٣٥٤.

(2) الكافي: ج٢ ص٥١.

(3) مفاتيح الجنان: ص٢٢٢.

أَوْكارِ الأَفْكارِ يأْوُونَ وَفِي رِياضِ القُرْبِ وَالمُكاشَفَةِ يَرْتَعُونَ وَمِنْ حِياضِ المَحَبَّةِ بِكَأْسِ المُلاطَفَةِ يَكْرَعُونَ وَشَرايِعَ المُصافاتِ يَرِدُونَ، قد كُشِفَ الغِطاءُ عَنْ أَبْصارِهِمْ وَانْجَلَتْ ظُلْمَةُ الرَّيْبِ عَنْ عَقائِدِهِمْ وَضمائِرِهِمْ وَانْتَفَتْ مُخالَجَةُ الشَّكِّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَسَرائِرِهِمْ وَانْشَرَحَتْ بِتَحْقِيقِ المَعْرِفَةِ صُدُورُهُمْ»[1].

والإيمان دون هذه المرتبة من اليقين، والذي هو – الإيمان– التصديق بجملة الاعتقادات الغيبية، والتقوى فوق الإيمان من حيث الاتباع والعمل بمقتضى الاعتقادات والتزكية الملازمة للتصفية من التعلقات المادية الباطلة باتباع الشريعة.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد، وهو يخفق ويهوى برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه وآله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال: أصبحت يا رسول اللَّه موقناً، فعجب رسول صلى الله عليه وآله من قوله، وقال له: إن لكل يقين

(1) مفاتيح الجنان: ص٢٢١.

حقيقة، فما حقيقة يقنيك؟ فقال: إن يقيني يا رسول اللَّه هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي واظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأنّي أنظر إلى عرش ربي، وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة، ويتعارفون على الأرائك متكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله لأصحابه: هذا عبد نور اللَّه قلبه بالإيمان، ثم قال له: الزم ما أنت عليه»[1].

والمقصود منه هو الإيمان الذي هو فوق درجة التقوى والمساوق لليقين أي بمعنى أنه شهود التوحيد بذوق القلب.

أثر الطبيعة في صياغة شعره العرفاني:

وقد كان الحبوبي يتمثل في شعره البريّة والجمال الأخاذ في الطبيعة، وبتعبير الأديب شاكر البرمكي أنه كان يمثل (عمرو بن

(1) الكافي: ج٢ ص٥٣.

أبي ربيعة في زمانه) فيقول[1]:

والحب من دون البرية كلها ديني الذي وشجت عليه عروقي

إن «النظر» الى البدائع الخلاّقة يلهم هيجان نفس العاشق المحب الواله لتجعله يركب موجة النسيم ويحلق مع الغيوم ويردد نشيد الطيور ويسبّح مع كل شيء لله ويحمده، أي أنه يتماهى مع الكون كلّه حيث تصفو النفس من الكدر والرين والغل، وحينها فقط يسمع تسبيح الكون لله تعالى، وكأن كل شيء صار شيئاً واحداً بلا لون أو طعم، فقط إحاطة الله بكل شيء وقيمومته، وفقط دهشة الروح من راحتها وهرولتها بعيداً عن ضوضاء الدنيا العنيدة.

ولذا ندب القرآن الكريم وأهل العصمة «صلوات الله عليهم أجمعين» الى التأمل في الكون والطبيعة وخلق الأشياء، فإن كل ذلك يجعل الإنسان في حال من التذكرة والتفكر النافع والارتياح النفسي والرغبة في التسبيح مع كل الخلق. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية : ١٧]، وعن الإمام علي عليه السلام: «كل

(١) الحبوبي رائد مدرسة، لشاكر البرمكي.

قول ليس لله فيه ذكر فلغو، وكل صمت ليس فيه فكر فسهو، وكل نظر ليس فيه اعتبار فلهو»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «النظر في ثلاثة أشياء عبادة: النظر في وجه الوالدين، وفي المصحف، وفي البحر»[2].

وقول الشاعر:

ثلاثة للناس ينفين الحزن الماء والخضراء والوجه الحسن

وهناك عامل آخر كان له الأثر في تكوين شعره العرفاني «وإرهاف إحساسه الجمالي، ألا وهو جولانه في ربوع نجد وقيعان، ربيعة وغطفان، ومسارح بقر الوحش والغزلان ... في ظِلِّ والده وأعمامه الأجلاَّء، وهم أرباب تجارة بين العراق ونجد والحجاز»[3].

«فمظاهر الكون والوجود الإنساني هما مصدر الإلهام الجمالي ومنبع الإيحاءات في شعره وأن الجميل عنده هو رمز الكمال الإلهي والمظهر الحسي للخير... وحقيقة الشعر عنده كانت

(١) بحار الأنوار: ج٧٨ ص٩٢.

(٢) بحار الأنوار: ج١٠ ص٣٦٨.

(٣) القيم الجماليَّة في شعر العلاَّمة الحبُّوبيّ، الأُستاذ توفيق الفكيكي.

فوق الكلام و الوزن و القافية فهو وليد الإحساس والوعي والخيال والعاطفة والإلهام، وتظهر حسنه وسحره عذوبة النغم وحسن الإيقاع، ومادته المعاني المتجسدة الحسنة النابضة بالحركة والحياة...»[1].

الحبوبي يدافع عن نفسه:

ومن ثم أخذ السيّد الحبوبي يدافع عن نفسه وطريقة نظمه للغزل فيقول:

ولستُ أقول هذا الشعر إلا فخاراً أو عتاباً أو نسيبا

وقال أيضاً رحمه الله:

لا تخل ويك ومن يسمع يخل إنني بالراح مشغوف الفؤاد
أو بمهظوم الحشا ساهي المقل أخجلت قامته سمر الصعاد
أو بربات خدور وكلل يتفننّ بقرب وبعاد
إن لي شرفي بداً ضفا هو من دون الهوى مرتهني

(1) السابق.

غير أني رمت نهج الظرفا عفة النفس وفسق الألسن

فلم يأخذه رحمه الله شعره ودقّة خيالاته ولطافة أسلوبه الى تفرعن الشباب ولا نبرة غير العاقل أو السفيه الجاهل، إنما هو نبرة من يحب من لا يُرى إلا ببصيرة القلب و«لَا يُدْرِكُه بُعْدُ الْهِمَمِ، ولَا يَنَالُه غَوْصُ الْفِطَنِ»[1] ولذا فهو يتحدث بالمحسوسات ليعبّر به عمّا ينشرح به صدره من الحب والقرب الإلهي.

فهو تشبيه في النهاية، قال المطرزي: «هو ركن من أركان البلاغة لإخراجه الخفي إلى الجليّ وإدنائه البعيد من القريب، وهو توطئة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتّمثيل، لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له»[2]، وقال المبرد: «لو قال قائل: هو أكثر كلام العرب لم يبعد، ولهم في تعريفه عبارات أظهرها ما عرّفه بها صاحب التلخيص وجماعة من أنّه الدّلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في

(1) نهج البلاغة: الخطبة: ١.

(2) انظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج١ ص٦٥.

معنى»[1].

«كقوله عليه السلام: فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطر المطر» فإنّ نزول ساير الأمورات معقول، ونزول المطر محسوس، وقوله عليه السلام: «فلم يبق منها الَّا صبابة كصبابة الإناء»، فانّ البقيّة من الدنيا معقولة والبقيّة في الاناء محسوسة. قال التّفتازاني: والوجه في تشبيه المحسوس بالمعقول أن يقدّر المعقول محسوساً ويُجعل كالأصل لذلك المحسوس على طريق المبالغة»[2].

ومن ذلك أنه كان يعلّم الناس قرائح الحب أو يجيد في نفخ جمره، فهو -على رأي- أنه لم يكتب الغزل لذاته وترنمه وجوانحه، فهو كان يعيش الاستعارة والتمثيل منها، في ذات الوقت الذي كان يكتب تلك الموشحات «في تهنئة اخوانه واصدقائه، وأهله واقاربه بأسعد المناسبات، والأيام والمسرات، من أعراس وختان وحج وسفر، فليس بينها واحدة كُتبت لغير هذا»[3].

(1) السابق.

(2) السابق: ج١ ص٦٦، بتصرف يسير.

(3) الموشح في شع الحبوبيّ، أحمد جواد علوش.

وفي أبيات للشيخ البهائي ﵀ نرى فيها أن الشعر العرفاني قوامه الاستعارة والتشبيه، كما هو حال السيّد الحبوبي ﵀ أيضاً في الكثير من شعره، وبهذا سيتضح الكثير مما قدّمه في غزله، ونحن وإن لم نوافق طريقتهم في الكثير من الخيالات والاستعارات غير المبررة، إلا أننا نقف على بعض الأجلاء ﵀ هنا كي يسرد في هذه الأبيات حالاته ومكاشفاته الخاصّة به ويشرح فيها تشرّفه بزيارة الحقّ سبحانه وتعالى، فنرى طريقتهم في إرادة الغزل وبعض الصور الشعرية غير التي يريدها أهل الدنيا، ومراداتهم غير مرادات المتصابي الغارق في اللهو والهوى، فيقول الشيخ البهائي ﵀ في أبيات هذا مطلعها:

أَيُّهَا اللاَّهِي عَنِ العَهْدِ القَدِيمْ أَيُّهَا السَّاهِي عَنِ النَّهْجِ القَوِيمْ
اسْتَمِعْ مَاذَا يَقُولُ العَنْدَلِيبْ حَيْثُ يَرْوِي مِنْ أَحَادِيثِ الحَبِيبْ

فيشرح الشيخ البهائي ﵀ في أبياته «لقاءه بالحقّ تعالى في اليقظة، وحالة المكاشفة الروحانيّة التي تنتابه، وعن هذا اللقاء يقول: ودخل عليَّ بمحيّاه بلا حجاب أو غطاء، مُسدلاً شعره على كتفيه، وحيث إنّ ذكر اصطلاح كلمة المحيّا عند أهل اللاهوت، هو تعبير

عن تجلّي نور الوحدة وجمال الحقّ، واصطلاح إسدال الشعر، كناية عن تجلّي الكثرات والمخلوقات ذات الهويّة. فإنّ ظهور الحقّ تعالى بمحيّاه المجرّد عن الحجاب، وشعره المسدل، هو تشبيه عن حالة الوحدة في الكثرة. وهذا هو الحقّ تعالى بوحدانيّته حين يُشاهد بالكثرة الناشئة عن وجوده معاً وسوية»[1].

ونحو هذا كثير جدّاً في شعر الحبوبي رحمه الله ولهذا فتوضيح ما مرّ يكشف بيان شعره واشتهار غزله الشريف العفيف.

ومحصّله: أنّه لا شبهة «بوجود الكثرة والتعدد واختلاف الأنواع والأصناف والأفراد، والله جل جلاله في إيجاد الممكنات المختلفة وتكوينها، قد ظهر وتجلى بالحياة والقدرة والعلم والإرادة تجلي المتكلم الفصيح البليغ في كلامه، وظهور عاكس كإنسان مثلاً في مرائي متعددة مختلفة جنساً ولوناً وشكلاً وجهة وعظماً وصغراً وغيرها من الصفا والكدرة، ولا ريب أن ما يرى من عكوسه المختلفة في أنحاء كثيرة في تلك المرائي ظهوره فيها لا وجوده

(1) معرفة الله: ج1 ص37.

فيها، ولا حلوله فيها، ولا اتحاده معها، وكذا الكلام في تجلي المتكلم في كلامه... فالموحد الحقيقي إذا أسقط الإضافات ولم يشاهد أعيان الممكنات والحقائق الوجودية الإمكانية والجهات الكثيرة الخلقية، ولم ينظر إليها ولم ير فيها إلا تجليه تعالى وظهور قدرته وصفاته الكمالية حيث لم تشغله تلك الخليقة عن الوجود الواجبي ولم تنسه عن لقاء الله عز وجل، ولم تذهله عن وجهه في كل شيء فهو فان في الله مرزوق عنده ولا يرى إلا إياه ولا يرزق التوحيد بهذا المعنى إلا الأوحدي من أهل الله، الفائز بنعمة لقائه العظمى...

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وروى الصدوق في باب الرد على الثنوية والزنادقة من التوحيد بإسناده عن هشام بن الحكم قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما الدليل على أن الله واحد؟.. قال: اتصال التدبير وتمام الصنع، كما قال عز وجل: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[الأنبياء:٢٢]»[1].

(1) التوحيد: ص٢٥٠.

وإذا نال الموحد هذا المقام العظيم يجد سلطان الله تعالى على ما سواه ويرى أنه ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ [هود:٥٦]، ويقول: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾[غافر:١٦] ويصل إلى سر قول إمام الموحدين أمير المؤمنين علي عليه السلام: «مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة»[١].... وبما قررنا علم سرّ قول كاشف الحقائق الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون»[٢] وقد روى قريباً منه ثقة الإسلام الكليني في روضة الكافي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبة خطب بها في ذي قار حيث قال عليه السلام: «فتجلى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه»[٣]»[٤].

وعليه، فالسيّد الحبوبي وإن خاض غمار المحسوسات وأطنب في الغزل ما تسيل له القرائح، إلا أنّه كان يتشبّه أو كان

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ١.

(٢) منهاج البراعة: ج١٩ ص ٢١٣، وانظر أيضاً كشكول البهائي.

(٣) الكافي: ج٨ ص٣٨٧.

(٤) السير الى الله، الشيخ حسن زادة، بتصرف يسير.

يقرض بإسلوب إياك أعني واسمعي يا جارة، أو يجعل تلك الأمور السامية لغزاً بين أبياته التي يعرفها به من عرفه، أو لأنه يصرّح بما لا يُقبل البوح به بطريق الشعر، أو غير ذلك، وكل ذلك وإن كان مباحاً وحقّاً كما مرَّ من تشبيههم وتلوين شعرهم بلون التوحيد والأنس بمن يطرب للحبيب، إلا أنه بالرغم من ذلك فإن فيه بعض الإشكالات العويصة التي سنقف عليها قريباً. قال رحمه الله:

روحيَ في روحك ممزوجةٌ حتى كأني منك في وحدة
أصبحت من حبك في جنة وربَّما تمزج روحانِ
لو صحَّ ان يتّحد اثنانِ تبهج في حور وولدانِ

وقال أيضاً:

لم أقل ما قلت إلاَّ شغفا بك يا حلية جيد الزمن
ليس قصدي وقصيدي اختلفا أنا مَن وافق سرِّي علني

وقال أيضاً:

يا حَمام الأيك بالله أعدْ سَجعك اليوم لصبٍّ واجدِ
إنْ تكن مثلي مهجوراً فزُدْ ربَّما يُطفي غليلي ربَّما

سَجعك اليوم بلَحن مطرب

وقال أيضاً وهو يتمثل نشوة التجلي والتي يُعبّر عنها بالخمرة في ألسنة الصوفية، ويشبهه بالأبيات التالية:

عِدَّها عنّي كؤوساً كمْ سبت مِن نفوس وعقول سلبت

زعم النشوان أنْ قد طربت نِغمة لمَّا احتساها وبما أحتسي مِن ريق سلمى طربي

وقال أيضاً:

يا مُعير الغصن قداً أهيفا ومعير الريم مرضى الحدق

هل الى وصلك من بعد الجفا بلغلة ْ تنعشُ باقي رمقي

همتُ في حبك والحبّ هيام فلي اللومُ ولا لومِ عليكْ

وتعاصيتُ على داعي الغرام فوقعتُ اليوم طوعاً في يديك

كلّما رمتُ أعاصيكَ الزمام جذبتني سورة الحبّ اليك

وإذا جال فؤادي وقفا حول مغناك فلم ينطلق

وعلى نادي هواك اعتكفا فغدى مأمنه في فرق

إن كلّ ما مرّ في جانب، إلا أنه ومن جانب آخر فالعيش مع التخيلات وامتهان الألفاظ ومشاعرها لا تتناسب كثيراً مع طالب الوصال، فإن سنخ العالم الذي يطلبونه بعيد جداً عن الألفاظ والتعابير الإحساسية التخيلية، بل قد يكون الكلام مبعداً لهم عنه، وقد يكون الإفصاح في مواضع غير الإفصاح من الرعونة غير المحمودة.

وبتعبير بعض الأجلاء أن حال هذه المقامات والحقائق لا تنال إلا بالعمل، حاله حال راكب السيّارة الذي يرى بضوء سيّارته طريقه، فإن هذا الضوء ينطلق لينير طريقه الذي أمامه لا أنه يكشف له المسافات البعيدة الشاسعة، فكلما تقدّم راكب السيارة الى الأمام أنار الضوء طريقه، فهو لم يرَ الطريق كلّه أول الأمر إلا أنه كلما تقدّم مسافة رأى بالضوء طريقه. وهكذا طالب الكمال فإنه لا يحسن أن يرى الأشياء كلها أول الأمر، إلا أنه كلما تقدّم خطوة في العمل وتطبيق أقوال الشريعة والمراقبة التامّة سوف يرى بنور

الإيمان طريقه، وكلما تقدّم أكثر كلما رأى من حقيقة التوحيد أكثر[1].

وعليه فسنخ المعنويات والروحانيات من سنخ الحقائق التي لا توصف بلسان، فلو سُئلت عن طعم التفاح لم يكن لوصفه معنى، لأنه سنخ مذوقات، وكذا لو أردت وصف الطيب، فإن الألفاظ قاصرة عن الوصول لدرك حقيقته لأنه سنخ مشمومات، وكذا هذه الحقائق المعنوية؛ فهي سنخ ما يدرك لا يوصف، ووصفها والإمعان في صياغتها ونظمها شعراً أو نثراً يضيّع مرادات الشريعة من كونها مما تدرك بذوق القلب لا مزاج المعاني والقريض. وهذا هو الحق، ولا ينبغي الإطناب في هذا المجال فإنه غير محمود.

هذا فضلاً عن أن «كتمان الحالات الروحية المتميزة عن عامة الخلق، من دواعي إبقاء تلك الحالات، إضافة إلى تجنيب صاحبها من آفة الرياء المقترن بالعمل، أو العجب اللاحق للعمل وكلاهما من محبطات الأجر.. ولا ينبغي الخروج عن قاعدة

(١) مضمون كلمة لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

الكتمان إلا في ظروف استثنائية: كإخبار ذوي البصيرة في شؤون النفس وتقلباتها، أو تشجيع طالبي الكمال بذكر بعض التجارب المشجعة في هذا المجال»[1].

وكل ما تمثل له السيّد الحبوبي ينبغي إعادة النظر فيه بالنظر لإعادته هو قُدِّسَ سِرُّهُ النظر فيه، لما عُرف عنه من هجرانه له، وهذه النطرة ليست أدبية أو علمية بالتأكيد وإنما هذا بنطر أهل الذوق والتزكية.

ولذا مرّت القصّة التي أثّرت بالسيّد الحبوبي وأشارت اليه بالاهتمام بنفسه لا بنظم شعره، وعن السيّد الشهيد الصدر رَحِمَهُ اللهُ قصّة حدثت له تبين المقصود من هذا، وهو في كون الاهتمام بالأمور الدينية العامّة أو المباحات من غير التوجّه نحو الإخلاص التام لله سبحانه سيكون منقصة في طريق السير الى الله تعالى، فيقول السيّد الشهيد رَحِمَهُ اللهُ: «قد قال لي بعض من (يفهم) حيث كنت اكتب بعض مؤلفاتي ما مضمونه: لماذا يعمل الإنسان عملاً كثيراً فيأخذ عليه

(١) الوصايا الأربعون، لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

ثواباً قليلاً بطيئاً، ألا يكون الأفضل له أن يعمل عملاً قليلاً فيأخذ عليه ثواباً كثيراً وسريعاً. يعني بالأول تأليف الكتب (الدينية بطبيعة الحال) فضلاً عن قراءتها، فضلاً عن غير الدينية، ويعني بالثاني طاعات النفس والقلب ونحوها»[1].

وعليه فالسيّد الحبوبي رحمه الله أدرك ذلك كما يبدو وهجر الشعر على أثر ذلك، إذ كان ينشد الشعر في المجالس الأدبية ويأخذه الحال في المجالس الطويلة وقضاء الوقت مع الصدر هذا والعجز ذاك، ورثاء هذا ومدح ذاك، وهكذا، فإن هذا الإطناب يُعدّ من فضول الكلام وفضول التخيلات التي تبذر في السالك الهوى وتورث الغفلة.

ويبدو من مدرسة السيّد القاضي والملا حسين قلي «رحمهما الله تعالى» أن استهداف مثل هذه الأمور –كمسلك لا عرضاً ولماماً– كإيصال المعاني العرفانية بصيغة الشعر غير محبذ، لأنه مهيّج للمخيلات ودرك للحقائق بغير لسانها، إذ أن لسان البصيرة هو

(1) قناديل العارفين: ص٦٥.

القلب.

وعليه فقوام السير: «بين التعرّض للمحبة الإلهية – الذي هو قوام الجذب الإلهي للعبد – وبين السلوك العملي أداءً للواجب وتركاً للحرام، فإنّ البعض يتوهم أنّ إظهار المحبة من دون عمل مما يحقق للعبد درجات من القرب، فتراهم يهيمون في عالم من التحليق الروحي، مستخدمين الشعر تارةً والنثر تارةً أخرى، ليرجعوا من تحليقهم إلى واقعهم المعاش بما فيه من موجبات إثارة سخط المولى ، سواء في مجال التعامل الفردي أو الاجتماعي أو الأسري»[1].

إن «تكثّر موجبات الالتهاء في الحياة اليومية سواء في مجال: المسكن والملبس والمأكل، يكثّف الحجب على النفس، ويدفع العبد إلى حالة من اللاتركيز في وقت يكون أحوج ما يكون فيه إلى التركيز في تقربه إلى المولى المتعال. إن الروايات المختلفة تؤكد على أن العبد في هذه الحياة بمثابة ضيف حلّ بدارٍ وهو يعلم

(١) من تعليق لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي على كتاب الطريق الى الله، بتصرف يسير.

بالرحيل عنها بعد حين، فهل رأينا عاقلاً ينشغل بتزيين دارٍ، وهو يعلم أنه سيرحل عنها في أية لحظة، من دون سابق إنذار؟!»[1].

و«الإكثار من القول يعرّض صاحبه للإكثار من الخطأ، وهو بدوره من موجبات قسوة القلب وموته أخيراً. فالصمت عن ما لا يعني العبد هو الحالة الطبيعية التي لا يؤاخذ عليها العبد، بينما الكلام يحتاج إلى دليل وعندها يُكتب العبد محسناً أو مسيئاً. وليُعلم أخيراً: أن موارد المؤاخذة على الكلام – يوم القيامة – لا تقاس بموارد المؤاخذة على الصمت»[2].

ولم يكن السيّد الحبوبي هو الأول في هجره لبعض المباحات من أجل الهدف السامي الذي قصده، بل كان قبله الشيخ البهائي رحمه الله.

قال السيّد الصدر في معرض الكلام عن استهداف العلوم الغريبة من قبل السالك، وعاقبة الشيخ البهائي رحمه الله من هجرانه لهذه العلوم: «ولكن الذي أجده وجداناً والذي تلقيته من (مولاي) هو أن

(١) الوصايا الأربعون، لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

(٢) السابق.

استهداف معرفة هذه الأمور وتأثيرها ليس بصحيح لأنه مبعد للإنسان عن هدفه الواقعي وحقيقة ما خلق لأجله. والاشتغال بها يبعد عن ذكر الله وتركيز طاعته. غير انني حسب فهمي أن شخصين مهمين استطاعا الجمع بين الأمرين هما الشيخ البهائي والسيّد بحر العلوم. إلا أن من اليقين أنهما يفضلان الهدف الحقيقي على كل ما سواه. ويكفينا أن الشيخ البهائي في نهاية أمره أعرض عن الدنيا وما فيها بما فيها هذه القوانين التي طبقها كثيراً في العراق وايران وكرس نفسه عندئذٍ لما هو أهم وأعلى»[1].

(١) قناديل العارفين: ص٢٢٣.

تذييل مختصر في معنى العرفان والعارف بالله:

يطل علينا القرآن الكريم الذي هو كتاب الهداية للبشر وقد صممت آياته الكريمات من أجل هذه الغاية السامية، فإن «أبلغ الموعظة وأحسن القصص كلام الله»[1]، فيقول تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت : ٦٤]، فترى أن الآية تدل على أن الدنيا وغرورها ولهوها غير الآخرة وباطنها والتي هي الحياة الحقيقية، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم : ٢٩]، ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم : ٤٢]، ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت : ٢١]، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام : ٣١]، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة : ١١٥].

وكقول علي عليه السلام: «لم أعبد ربّاً لم أره»[2]، وعن محمد بن الفضيل قال: «سألت أبا الحسن عليه السلام هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه عز وجل؟ فقال: نعم بقلبه رآه، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿مَا

(١) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، انظرها في مستدرك الوسائل: ج٦ ص١٦١.
(٢) الوافي: ج١١ ص٢٦.

كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم : ١١]، أي لم يره بالبصر، لكن رآه بالفؤاد»[1].

والغرض من كل ذلك هو الإرشاد الى الطريق الى الله تعالى وهو الرؤية وليست هو طريق العقل والاستدلالات الذهنية فهو لا يوجب إلا العلم الحصولي[2]، وقد نفت الأحاديث كونها بالعقل، وإنما هي معرفة حصيلة شهود الموجود بطريق معرفة النفس.

توضيحه: إن ذلك يكون باتباع الشريعة والعبادة على

(1) توحيد الصدوق: ص١١٦.

(٢) العلم الحصولي: مفاهيم ذهنية يلتقطها الإنسان مما حوله بحيث لا يترتب عليها آثارها الخارجية، فالنار كصورة ذهنية لا يترتب عليها الإحراق وصورة الأسد في الذهن لا يترتب عليها الأثر الخارجي للأسد كالسبعية وبقية الآثار لذلك الحيوان، بعكس العلم الحضوري والذي يعني أن يكون المعلوم حاضراً بذاته لدى العالم لا صورته، وعندئذ يترتب عليه آثار حضوره، كعلم الإنسان بالألم في جسده فهذا علم حضوري لأن الألم بنفسه كان حاضراً، وعندما يشرح للطبيب هذا الألم يكون الطبيب قد علم حصولاً بالألم إذ لم يحصل لديه الألم بل صورة ذلك الألم. إذن فالعلم الحصولي هو الصورة الذهنية الحاضرة في أذهاننا.

وجهها الصحيح والرياضات المندوبة في الشرع الحنيف، كلّها ستصرف وجه العبد عن الدنيا وشواغلها ومتعلقاتها حتى يرى نفسه عبر التروّض والتقوى فقراً محضاً محتاجاً إلى الحقّ سبحانه بحيث لا ينفك هذا العلم الحضوري والشهود بفقر النفس عن مشاهدة مقوّمه ومفيض الوجود عليه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥].

وعن الصادق عليه السلام: «من زعم أنه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك، لأن الحجاب والمثال والصورة غيره، وإنما هو واحد موحد فكيف يوحد من زعم أنه عرفه بغيره، وإنما عرف الله من عرفه بالله»[1].

وعن الصادق عليه السلام: بعد أن ردّ عبادة المتوهمين، قيل له: «فكيف سبيل التوحيد؟ قال عليه السلام: باب البحث ممكن وطلب المخرج موجود، إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه، قيل: وكيف تعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قال

(١) توحيد الصدوق: ص١٩٢.

عليه السلام: تعرفه وتعلم علمه، وتعرف نفسك به، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أنّ ما فيه له وبه كما قالوا ليوسف: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ [يوسف : ٩٠] فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب»[1].

فمثّل عليه السلام معرفة الله تعالى بمعرفة إخوة نبي الله يوسف له، إذ أنهم نظروا إليه فعرفوه به لا بغيره. وفي الدعاء: «يا مَنْ دَلَّ عَلى ذاتِهِ بِذاتِهِ»[2]، «بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ»[3].

فالإنسان «إذا اشتغل بآية نفسه وخلا بها عن غيرها انقطع إلى ربه من كل شيء، وعقب ذلك معرفه ربه معرفة بلا توسيط وسط، وعلماً بلا تسبيب سبب؛ إذ الانقطاع يرفع كل حجاب مضروب، وعند ذلك يذهل الإنسان بمشاهدة ساحة العظمة والكبرياء عن نفسه، وأحرى بهذه المعرفة أن تسمى معرفة الله بالله.

(١) تحف العقول: ص٣٢٦.
(٢) مفاتيح الجنان: ص١٢٢.
(٣) السابق: ص٣٠٠.

وانكشف له عند ذلك من حقيقة نفسه أنها الفقيرة إلى الله سبحانه المملوكة له»[1].

وإذا علمت أنّ الله تعالى هو الخالق لكلّ شيء «وأنّ كلّ شيء موجود به فقد عرفت نفسك به، وحينئذ لا تعرف نفسك بنفسك من نفسك بل تعرفها به تعالى، وتعلم أنّ ما في نفسك من الوجود والآثار فإنّما هي له تعالى وبه تعالى، فقوله: كما قالوا ليوسف، أي إنّ أخوة يوسف نظروا إلى يوسف فعرفوه به لا بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهم القلوب بل عرفوه بالنظر إليه، فبه عرفوه. وكذلك العارف ينظر إلى علائم الله تعالى وتجلياته بالقلب فيعرفه به تعالى لا بغيره وهذه معرفة حقيقية. والحاصل: أنّ طريق معرفة النفس هي الموصلة إلى هذه الغاية، وهي أقرب الطرق، وذلك بالانقطاع عن غير الله، والتوجّه إلى الله سبحانه بالاشتغال بمعرفة النفس»[2].

(1) تفسير الميزان: ج٦ ص١٧٥.

(2) الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة: الشيخ جواد عباس الكربلائي: ج١ ص٧٧.

وفي المنسوب الى الإمام الحسين عليه السلام: «كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ أَيَكُونُ لِغَيْرُكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِرَ لَكَ ؟ مَتى غِبْتَ حَتَّى تَحْتاجَ إِلى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقِيباً وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلَ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً»[1].

من هنا نفهم حقيقة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[2].

(1) مفاتيح الجنان: ص٤٢٥.

(٢) عوالي اللئالي: ج٤ ص١٠٢. وفي الغرر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أعظم الجهل جهل الانسان أمر نفسه».

وفيه عنه عليه السلام قال: «أعظم الحكمة معرفة الانسان نفسه».

وفيه عنه عليه السلام قال: «أفضل العقل معرفة المرء بنفسه فمن عرف نفسه عقل، ومن جهلها ضل».

وفيه عنه عليه السلام قال: «عجبت لمن ينشد ضالته ، وقد أضل نفسه فلا يطلبها».

وفيه عنه عليه السلام قال: «عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه؟».

وفيه عنه عليه السلام قال: «غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «العارف من عرف نفسه فأعتقها ونزهها عن كل ما يبعدها»[1]. أي أعتقها من ربقة غير الله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٩]، ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات : ٨٤].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد سئل: «ما القلب السليم؟ قال:

وفيه عنه عليه السلام قال: «كفى بالمرء معرفة أن يعرف نفسه، وكفى بالمرء جهلاً أن يجهل نفسه».

وفيه عنه عليه السلام قال: «من عرف نفسه تجرد». أي تجرد من التعلقات المادية المذمومة أي من عوائق الشهود وما يشهد به فقر نفسه ورؤيته بعين قلبه لقيمومة ربه ووجوده به.

وفيه عنه عليه السلام قال: «من عرف نفسه جل أمره».

وفيه عنه عليه السلام قال: «من لم يعرف نفسه بعد عن سبيل النجاة، وخبط في الضلال والجهالات».

وفيه عنه عليه السلام قال: «معرفة النفس أنفع المعارف».

وفيه عنه عليه السلام قال: «نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس».

وفيه عنه عليه السلام قال: «لا تجهل نفسك فإن الجاهل معرفة نفسه جاهل بكل شيء».

(1) غرر الحكم : ١٧٨٨.

دين بلا شك وهوى، وعمل بلا سمعة ورياء»[1]. وعن الصادق عليه السلام: «القلب السليم الذي يلقى ربه، وليس فيه أحد سواه، وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط»[2]. وعنه عليه السلام: «هو القلب الذي سلم من حبّ الدنيا»[3]. وعنه عليه السلام: «صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأن سلامة القلب من هواجس المذكورات، تخلص النية لله في الأمور كلها»[4].

إذن فالطريق لمعرفة الله هو طريق عرفان النفس ويتأتى ذلك بما ندب به الشرع من العبادة، أي التوجه الى الله تعالى ومخالفة النفس بإتيان الواجبات واجتناب المحرمات، ومن ثم يتبعها بالمراقبة الشديدة في القول والفعل «ومَنْ لا مراقبة له، لا يُؤمن منه صدور الأخطاء الفادحة التي قد تستنزل غضب الرب، بما قد يكون طارداً له عن أصل الطريق، ولا نعني بالمراقبة

(1) مستدرك الوسائل: ج١ ص١١٣.
(2) الكافي: ج٢ ص١٦.
(3) نور الثقلين: ج٤ ص٥٨.
(4) السابق.

المتقطعة العابرة، وإنما المراقبة الدقيقة الدائمة، إذ أنّ العدو المتربص لا يحتاج إلى غفلةٍ مطبقة في كلّ الأوقات، بل تكفيه الغفلة في برهةٍ من الزمان، ليصادر المكتسبات في ساعة اليقظة، ومن الواضح أن عملية الكرّ والفرّ هذه، لا تدع السالك يتقدم ولو قليلاً»[1].

إذن فالعبادة واتباع الشريعة والتوجّه الى الله تعالى هي التي تسوق العبد نحو تخليص نفسه من عوالقها وعوائقها وتزيل عنه درن الرين والحجب. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦]، ومن المعلوم أن العبادة والتوجه والخشوع بين يدي الله تعالى فرع أن تعرفه، وإلا كيف تخشع لمن لا تعرف، فصارت المعرفة غاية الخلقة أيضاً، ولذا روي في تفسير الآية ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي إلا ليعرفون[2].

ثم إن حقيقة العبادة هي الانقياد والاتباع، قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١]، وعن الصادق عليه السلام:

(١) الوصايا الأربعون، لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

(٢) شرح أصول الكافي للمازندراني: ج٤ ص٢١١.

«إن الناس يعبدون الله عز وجل على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه فرقاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة، ولكني أعبده حباً له عز وجل فتلك عبادة الكرام وهو الأمن لقوله عز وجل: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل : ٨٩] ولقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران : ٣١] فمن أحب الله أحبه الله عز وجل، ومن أحبه الله عز وجل كان من الآمنين»[1].

وقَالَ أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّه رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّه رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَّه شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ»[2].

إذن فالعبادة توجب إشراق القلب بحب الله تعالى، ومن ثمَّ فالمواظبة على اباع الشريعة والمراقبة التامّة بين يدي الله تعالى ستفرغ القلب شيئاً فشيئاً مما سوى الله تعالى.

(١) الخصال: ص١٨٨.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة: ٢٣٧.

فالأحرار هم من تحرروا من ربقة غير الله أي أنهم أخلصوا لله تعالى في كل شأنهم، ﴿سُبْحَانَ اللَّـهِ عَمَّا يَصِفُونَ، إِلَّا عِبَادَ اللَّـهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٥٩-١٦٠].

وفي تفسير العسكري: «قال محمد بن علي الباقر عليه السلام: لا يكون العبد عابداً لله حق عبادته حتى ينقطع عن الخلق كلهم إليه، فحينئذ يقول: هذا خالص لي، فيقبله بكرمه»[1].

فالعبادة التي قطعت النفس عن تعلقاتها الخاصّة ووجهت العبد نحو خالقها وبارئها وأفرغت القلب مما سواه سبحانه وصار المقصود الحقيقي هو الله تعالى «يا نَعيمِي وَجَنَّتِي وَيا دُنْيايَ وَآخِرَتِي»[2]، «أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الأَنْوارَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِواكَ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلى غَيْرِكَ أَنْتَ المُؤْنِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوالِمُ وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمْ المَعالِمُ،

(١) تفسير العسكري عليه السلام: ص٣٢٨.

(٢) مفاتيح الجنان: ص٢١٧.

ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ وَما الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟!»[1].

يقول الشيخ الكاظمي: «إنّ الإحساس بالتجليات الإلهية - التي هي من أهم الهبات في عالم الوجود -نِعْمَ العون على المسير، فإنّ العبد كلما كُشف له الغطاء في هذا المجال ازداد شوقاً لما هو أجلى وأحلى، إذ لا تكرار في التجلّي، فلكلّ إطلالةٍ من عالم الغيب بهاءٌ وجذبٌ خاصٌّ للعبد تختلف على سابقته، ومن هنا فإنّ الأولياء المتنعّمين بلذّة التجليات، لا يكاد ينتابهم ضيقٌ في الحياة بكلّ مراراتها، لأنّ لذّة الوصل يُنسيهم ألم كلّ فراقٍ، ولو كان ذلك الفراق عند أهل الدنيا عظيماً»[2].

وصار الهم -بعد اشتعال الحب في القلب وبعد أن لاحت معالم الطريق الإلهي أمام ناظري العبد- أن تخرق النفس حجاب نفسها الذي بينها وبين ربّها، وهو معنى الإخلاص المتقدّم، وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «ليس بينه وبين خلقه حجاب إلا خلقه»[3]، أي

(1) السابق: ٤٢٧.

(٢) من تعليق سماحة الشيخ حبيب الكاظمي على كتاب الطريق الى الله.

(3) بحار الأنوار: ج٣ ص٣٢٧.

أن المانع من الإخلاص هو غير الله أي خلقه، فالإخلاص بمعنى لا حجاب بينك وبين الله أو «لا يكون في قلبه مع الله غيره»[1] كلّ ذلك حجاب عن قصده تعالى، وفي المنسوب من دعاء الإمام الحسين عليه السلام: «الهِي تَرَدُّدي فِي الآثارِ يُوجِبُ بُعْدَ المَزارِ فاجْمَعْنِي عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُنِي إِلَيْكَ»[2].

وعليه فحجاب الإنّية هو أكثف الحُجب والذي أعمى الإنسان عن ربّه وجعل بصره الحديد كالتراب لا قيمة له، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا – العمى من حب الدنيا والهوى وكل ما سوى الله سبحانه – فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ – الذي كنت تحتجب به – فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ –نافذ الإبصار﴾ [ق : ٢٢].

قال الشيخ البحراني: «مخالفة النفس مفتاح البركات»[3]، وهذا التعبير ليس مبالغاً فيه، «إذ أنّ من قواعد السفر إلى الله تعالى التي لا تنخرم أبداً، هي استحالة السير من دون السيطرة على زمام

(١) حديث عن الصادق عليه السلام انظره في مستدرك الوسائل: ج١ ص١٠١.

(٢) مفاتيح الجنان: ص٤٢٥.

(٣) انظر الطريق الى الله للبحراني.

النفس، إذ كيف يمكن سوق دابةٍ ولجامها بيد غير صاحبها، وعليه فالخطوة الأولى في الحركة هو تطويع الوجود الإنساني بجوارحه وجوانحه للإرادة، ومن المعلوم أنّ هذه المرحلة يمكن أن تعدّ قطعاً لنصف الطريق، إذ أنّ الميل والشهوة والخيال من الأبواب التي تجرّ العبد إلى الهاوية مهما كان العبد جادّاً في قطع الطريق، فإنّ الأمر لا يتمّ بالإيمان واليقين فضلاً عن الأماني، ومن هنا قال الإمام الكاظم عليه السلام: «وقد علمت أنّ أفضل زاد الراحل إليك عزمُ إرادة يختارك بها، وقد ناجاك بعزم الإرادة قلبي»[1][2].

ويقول السيّد العلاّمة الطباطبائي رحمه الله: «والمحصّل أن طريق معرفة النفس هي الموصلة الى هذه الغاية، وهي أقرب الطرق فحسب؛ وذلك بالانقطاع عن غير الله، والتوجّه الى الله سبحانه بالاشتغال بمعرفة النفس كما يحصل من خبر موسى عليه السلام: «ليس بينه وبين خلقه حجاب إلا خلقه...».. وهذا الحديث الشريف أجمل بيان لأحسن طريق؛ فيبتدئ بالأسباب الواردة شرعاً للانقطاع، من

(١) الإقبال ج٣ ص٢٧٧

(٢) من تعليق لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي على كتاب الطريق الى الله.

التوبة والإنابة والمحاسبة والمراقبة، والصمت والجوع، والخلوة والسهر، ويجاهد بالأعمال والعبادات، ويؤيد ذلك بالفكر والاعتبار، حتّى يورث ذلك انقطاعاً منها الى النفس، وتوجّهاً الى الحق سبحانه، ويطلع من الغيب طالع، ويتعقبه شيء من النفحات الإلهية والجذبات الربّانية، ويوجب حبّاً وإشراقاً، وذلك هو الذكر.

ثم لا يزال بارق يلمع، وجذبة تطلع، وشوق يدفع، حتى يتمكن سلطان الحب في القلب، ويستولي الذكر على النفس، فيجمع الله الشمل، ويختم الأمر ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

واعلم أن مثل هذا السائر الظاعن مثل من يسلك طريقاً قاصداً الى غاية، فإنما الواجب عليه أن لا ينسى المقصد، وأن يعرف من الطريق مقدار ما يعبر منه، وأن يحمل من الزاد قدر ما يحتاج اليه. فلو نسي مقصده آناً ما، هام على وجهه حيران، وضلّ ضلالاً بعيداً، ولو ألهاه الطريق ومشاهدته وما فيه، بطل السير وحصل الوقوف، ولو زاد حمل الزاد تعوّق السعي وفات المقصد،

والله المستعان سبحانه»[1].

وينبغي مراعاة الأدب الخاص في السير الى الله تعالى، فقد «يصادف العبد في سيره إلى الحق المتعال، بعض البركات الظاهرية المتصلة بعالم الغيب، وقد تكون هذه – إذا لم تكن وهماً – بعض الثمار المعجلة تشجيعاً لصاحبه على السير، إلا أن العبد الملتفت، عليه أن لا ينشغل بها لأنها ليست من العبودية في شيء، فهمّ العبد أن يصلح ما بينه وبين ربه، ولا يهمه ما العطاء بعد ذلك؟!. إذ التدخل في شؤون الرب الحكيم، نوع من سوء الأدب الذي قد لا يغفر لصاحبه، وخاصة إذا كان في المراحل العليا من التكامل»[2].

وفي المحجّة كلام رشيق أنيق في هذا المجال، قال الفيض قُدِّسَ سِرُّهُ: «فإن قلت: فما الطريق إلى معرفة أسرار الدّين وتحصيل اليقين؟ فاعلم أنّ اللّه سبحانه جعلنا أزواجاً وجعل لكلّ منّا شرعة ومنهاجاً، وليس لعامّة الناس أن يسلكوا مسلك الحكماء الألبّاء أو ينهجوا منهج الرّبّانيّين من العلماء، فإنّ جناب الحقّ جلّ أن يكون

(1) رسالة الولاية، طبع دار الصادقين: ص٧٦.

(2) الوصايا الأربعون، لسماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

شريعة لكلّ وارد أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد، والمؤمن الموقن أعزّ من الكبريت الأحمر، ثمّ لا بدّ لمن أراد الشروع في تحصيل العلم المكنون عند أهله المضنون به عن غير أهله أن يكون شابّاً[1] صحيح المزاج، ذكيّاً أميناً عفيفاً صدوقاً، مهذّب الأخلاق، مبرّأ عن الرّياء والنفاق، مبغضاً لفضول الدّنيا، معرضاً عن المكر والغدر والخيانة ونحوها، معظّماً للعلم والعلماء، مقبلاً على الوظائف الشرعيّة فرائضها ونوافلها بعد أن تعلَّم أحكامها وعرف حلالها وحرامها وكان قد أخذها عن أهلها وإمامها، قال الصادق عليه السلام: «إِنَّ آيَةَ الْكَذَّابِ بِأَنْ يُخْبِرَكَ خَبَرَ السَّمَاءِ والأَرْضِ والْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ فَإِذَا سَأَلْتَه عَنْ حَرَامِ اللَّه وحَلَالِه لَمْ يَكُنْ عِنْدَه شَيْءٌ»[2].

(١) كأنه إشارة الى قوّة الشباب في السير الى الله تعالى او غيره من المعاني، ككون المناط فيه صحة المزاج لا الاعتلال من حيث السقم الذهني أو العائق البدني عن الرياضات الشرعية أو قسوة القلب عن ادراك هذه المعاني بعد الجفاء عنها، ونحوها، ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [الأنبياء : ٤٤]، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد : ١٦]، الموافقة لما قلنا لا الى كون غير الشاب بعيداً عن ولوج ساحة القرب فإنه لا يتصوّر من أمثاله رحمه الله.

(٢) الكافي: ج٢ ص٣٤٠.

ثمّ بعد ذلك كلّه اشتغل بتحصيل هذا العلم من طريقه وعلى وجهه بتقديم الإتيان بالفرائض، ثمّ النوافل، ثمّ مراعاة الآداب والسنن، ثمّ الصبر على البلايا والمحن وملازمة الذكر ومداومة الفكر حسب الميسور، والتخلّي عن الشهوات النّفسانيّة والخواطر الشيطانيّة بالمقدور، وجعل الهموم همّاً واحداً مع إخلاص النيّة وصفاء الطويّة والعمل بما يتعلّمه شيئاً فشيئاً، ومراقبة النفس آناً فآناً حتّى يصير العلم عياناً له بعد يقين ويترقّى من علم اليقين إلى عين اليقين إلى حقّ اليقين، والعمدة فيه الزّهد في الدّنيا ومتابعة الشرع من طريق أئمّة الهدى وملازمة التقوى، قال اللّه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢]. وقال: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال : ٢٩]. وقال:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف : ٩٦]. وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت : ٦٩].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ من أحبّ عباد اللّه إليه عبداً أعانه اللّه على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه ... قد خلع سرابيل الشهوات وتخلّى من الهموم إلا همّاً واحداً انفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى وصار من مفاتيح أبواب الهدى، ومغاليق أبواب الرّدى[1]، قد أبصر طريقه، وسلك سبيله، وعرف مناره، وقطع غماره[2]، واستمسك من العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس»[3][4].

وبعبارة أخرى تزيده ايضاحاً؛ فإن على العبد «تلطيف حقيقته المعبّر عنها تارة بالروح، وأخرى بالقلب، وثالثة بالعقل ويجمعها أنّها هي الجوهرة اللطيفة الملكوتيّة، فلا بدّ من تلطيفها بقبول تجلّيات الحقّ، لتصير النفس مرآة مجلّوة يحاذي بها شطر

(١) المغلاق - وزان المفتاح - ضده يعنى ما يغلق به الباب.

(٢) بكسر الغين جمع غمر بالفتح وهو معظم البحر والماء الكثير، ولعل المراد بقطع الغمار خروجه عن فتن الدنيا ومضلاتها بسفن النجاة والهدايات خاصة.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة: ٨٦.

(٤) المحجّة البيضاء: ج٥ ص١٣٩.

الحقّ، ويعين عليه الفكر اللطيف والعشق العفيف[1] ثمّ يحاسب نفسه دائماً في أفعاله وأقواله، ويجعل النفس منهما في كلّ ما يأمر به الشرع والعقل والاستبصار الإلهي، فإنه وإن أمرها بالعبادة إلا أنه لا بدّ من تقييدها بالمحاسبة ... لتكون عبادته مشتملة على المعنويات والحقائق الإلهيّة الباطنيّة. كلّ ذلك لأن النفس مجبولة على محبّة شهواتها ولذّاتها... ثمّ إنّ السالك إذا خلص من النفس وصفا وقته، وطاب عيشه بالالتذاذ بما يجده في طريق المحبوب يتنوّر باطنه، فتظهر له لوامع الغيب، وينفتح له باب الملكوت، وتلوح منه لوائح مرة بعد أخرى، فيشاهد أموراً غيبيّة في صور مثاليّة، فإذا ذاق شيئاً منها يرغب في العزلة والخلوة والذكر والمواظبة على الطهارة التامة والوضوء، والعبادة والمراقبة والمحاسبة، ويعرض عن المشاغل الحسّية، ويفرغ القلب من محبّتها، ويتوجه باطنه إلى الله الحقّ بالكليّة. فيظهر له الوجد

(١) العشق من حيث هو هو حسن فإن تعلَّق به تعالى وبشؤونه تعالى كان حسناً عفيفاً وإلَّا فإن تعلَّق بما دونه، فإن كان مباحاً فهو مباح كالجنّة والأمور المحلَّلة وإلَّا فهو مذموم بل محرّم.

والسكينة والشوق، والمحبّة والهيمان والعشق، فيمحو تارة بعد أخرى فيجعله فانياً نفسه ... فيحقّق في المشاهدة والمعاينة والمكاشفة، وتفيض عليه العلوم اللَّدنيّة والأسرار الإلهية، وتظهر له أنوار حقيقية تارة وتختفي أخرى حتى يتمكَّن ويخلص من التلوين، وتنزل عليه السكينة الروحية، ويصير ورود هذه الأحوال له مقاماً، أي ملكة راسخة»[1].

ومن المهم أن نشير الى أن هذا التسلسل ليس قاعدة دائمة فقد يلج العبد الى أعلى المراتب مرّة واحدة، وقد يلطف به الله تعالى الى نصف الطريق بطفرة واحدة، وهكذا، فإن لله في خلقه شؤون لا تدركها الظنون، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فالطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق، «فليست هنالك معادلة ثابتة في جزئيات السير اليه، فلكل زمان، ومكان، وفرد، وظرف، موجباته وموانعه ..فلذلك تعددت السبل، وإن اتحد

(1) الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة: ج1 ص152.

الصراط، فجمع الأول وافرد الثاني في القرآن[1]. ومن هنا لا ينبغي التأسي بخصوصيات السالك الفردية - وإن كان واصلاً - لأن لكل فردٍ ظرفه وتكليفه. ومعرفة السبيل الأنسب من بين السبل، شاغل لبال السالكين جميعاً.. فليست هناك مشكلة في الحكم الشرعي الالزامي لإمكان معرفة ذلك من خلال ما ورد في الفقه، وإنما المشكلة كامنة في الأحداث والوقائع الشخصية التي لا دور للفقه فيها كموارد تزاحم الأهم والمهم، وهنا يحتاج السالك إلى بصيرة نافذه في معرفة السبيل الأقوم في مقابل السبل المستقيمة الأخرى، وهي إما أن تحصل بالإلقاء في الروع والاحساس اليقيني بذلك، أو بالتسديد القهري بوضعه على الطريق ولو مع عدم الاحساس بذلك، أو عن طريق اشارات اهل المعرفة الذين فتحت لهم الأبواب، «عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ - وكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ - فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الأَبْصَارِ والأَسْمَاعِ والأَفْئِدَةِ»[2].

(١) إشارة الى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام : ١٥٣].

(٢) نهج البلاغة: الخطبة: ٢٢٢.

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1][2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهِي هَبْ لِي كَمال الاِنقطاع إلَيْكَ»[3]، ويقول السيّد الخميني رحمه الله في ذلك: «كمال الانقطاع المشار إليه هو الخروج من منزل الذات والذاتيّة ومن كلّ شيء وكلّ شخص للارتباط به والانقطاع عن الغير ...»[4].

ويقول السيّد الطباطبائي: «فأوّل ما يفنى منهم الأفعال، وأقلّ ذلك على ما ذكره بعض العلماء ستّة: الموت والحياة والمرض والصحّة والفقر والغنى، فيُشاهدون ذلك من الحقّ سبحانه كمن يرى حركة ولا يُشاهد مُحرّكها وهو يعلم به فيقوم الحقّ سبحانه في مقام أفعالهم، فكأنّ فعلهم فعله سبحانه ... ثمّ يفنى منهم الأوصاف، وأصولها - على ما يظهر من أخبار أهل البيت عليهم السلام - خمسة: الحياة

(١) بصائر الدرجات: ص٣٧٥.

(٢) من تعليقات سماحة الشيخ حبيب الكاظمي على كتاب الطريق الى الله.

(٣) مفاتيح الجنان: ص٢٦٥.

(٤) المظاهر العرفانية: ص٤١.

والعلم والقدرة والسمع والبصر، وقام الحقّ سبحانه في ذلك مقامهم ... ثمّ يفنى الذات، وينمحي الاسم والرسم، ويقوم الحقّ سبحانه مقامهم»[1].

ومن ثمَّ لو أردنا أن نختصر بيان معالم المدرسة السلوكية للعلماء الأجلاء من جيل الشوشتري وحسين قلي والحبوبي والقاضي وبهجت وبعض المعاصرين كالشيخ حبيب الكاظمي «رحم الله الماضين وحفظ الباقين بمنّه وكرمه»، كلّه نختصره بهذا: «من عَمِلَ بما عَلِمَ أورثه الله علم ما لم يعلم»[2]؛ لأن مادة الإشراق عندهم هو العمل لا الاتكال، وهو الشرع لا البدع، وهو طريق المعصومين عليهم السلام.

وبتعبير سماحة الشيخ الكاظمي: «إنّ احتراف تخزين صورة الواقع في الباطن والتلذذ بذلك - كمن يستلذ بجمع الكتب في الظاهر - لا يمكن أن تُعدّ عملية مقدسة توجب بنفسها قرباً للعبد إلى الحق المتعال، وعليه فإنّ العلم المتراكم بلا عملٍ قد

(1) رسالة الولاية للسيّد الطباطبائي، عن العرفان الشيعي: ص٢٥٣.

(٢) وهو حديث منسوب للنبي صلى الله عليه وآله كما في كشف الخفاء للعجلوني: ج٢ ص٢٨٧ والأصول الأصيلة للفيض الكاشاني وفيه: «كفي ما لم يعلم».

يتحول إلى شغلٍ شاغلٍ تألفه النفس، فلا يعود العبد يفكّر بعدها للعمل، شغلاً بما فيه من الإنكشافات الذهنية التي لا قيمة لها في الخارج»[1].

ولهذا فالمنهج الصحيح للبلوغ الى أعلى المراتب السنيّة هو «المجاهدة والمراقبة والالتزام بقح الشريعة واتقان الصلاة أول الوقت وعدم التطرف في قهر النفس والالتزام بالمأثورات وعدم الانبهار بالأشخاص وكتبهم وحصر ذلك على أهل البيت عليهم السلام والإكثار من التوسّل بهم خاصّة سيد الشهداء عليه السلام»[2].

تعريف العرفان الشيعي:

ونخلص من كل العبائر السابقة الى تعريف العرفان في الفكر الشيعي، ففي عبارة حول الزاهد والعابد والعارف يقول الشيخ الرئيس ابن سينا قدس سره: «المعرض عن متاع الدُّنيا وطيّباتها يخصّ باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام

(١) من تعليقة على كتاب الطريق الى الله.

(٢) من كلام سماحة الشيخ حبيب الكاظمي.

ونحوها يخصّ باسم العابد، والمنصرف بفكره إلى قُدس الجبروت مستديماً بشروق نور الحقّ في سرّه يخصّ باسم العارف، وقد يتركّب بعض هذه مع بعض»[1].

ولذا يرى العارف أمّهات الأمور بعين قلبه وإشراق ربّه بحيث يتمكن من رؤية حقائق الأشياء كما هي عبر التزكية والتخلية والتحلية، فما يدركه الحكيم بالبراهين العويصة يراه هو بالإشراق اللطيف.

والعرفان «في اللغة هو بمعنى المعرفة، ويطلق اصطلاحاً على المعرفة الحاصلة عن طريق المشاهدة القلبيّة لا بوساطة العقل ولا بفضل التجربة الحسّية، فالعارف الذي قد حقّق تقدّماً في سيره العرفاني ينظر إلى عالم الوجود على أنّه مظاهر لنور الباري جلّ وعلا، وكأنّ كلّ ظاهرة من ظواهر العالم مرآة تعكس الجمال الأحدي، وهو لا يرى وجوداً استقلاليّاً لأيّ موجود ما عدا الذات الإلهيّة المقدّسة.

(1) الإشارات والتنبيهات، ج ٣ ص٣٦٩.

وهـذا اللـون مـن المعرفـة لا يحصـل إلاّ فـي ظـلّ العمـل المخلص بأحكام الدِّين، وفـي الواقـع فإنّـه الثمـرة الرفيعـة والنهائيّـة للدِّين الحقيقي. وهذا هو النـور المعنـوي الـذي يفيضـه الله سـبحانه على قلوب أحبّائه»[1].

ويقـول السـيّد حيـدر الآملـي رحمه الله: «اعلـم أنّ العلـوم كلّهـا تنقسم إلى قسمين: رسميّ اكتسابيّ، وإرثيّ إلهـيّ، فـالعلم الرسـمي الاكتسابي يكون بالتعليم الإنسـاني علـى التـدريج، مـع نصَـب قـويّ وتعب شديد في مدّة طويلة، والعلم الإرثي الإلهـي يكـون تحصـيله بالتعليم الربّاني بالتدريج وغير التدريج مع رَوح وراحـة - فـي مـدّة يسيرة - وكلّ واحد منهما يحصل بدون الآخر، ولكـنّ الثـاني - أي العلم الإرثي - يفيد بدون الأوّل، والعلم الأوّل لا يفيـد بـدون العلـم الثـاني، كعلـوم الأنبيـاء والأوليـاء، فإنّهـا تفيـد بـدون العلـم الظـاهر، بخلاف العلم الظاهر فإنّه لا يفيد بدونـه. وإليهمـا أشـار النبـيّ صلى الله عليه وآله بقوله: «العلم علمـان؛ علـم اللسـان فـذلك حجّـة الله علـى ابـن آدم،

(١) محاضرات في الأيديولوجيّة المقارنة، الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي، ص٢٠.

وعلم في القلب، وذلك هو العلم النافع»[1]. وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «العلم علمان مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع»[2]»[3].

(1) بحار الأنوار: ج١ ص٢١٨.

(2) نهج البلاغة: الحكمة: ٣٣٨.

(3) جامع الأسرار ومنبع الأنوار، ص٤٧٢.

المحتويات:

كيمياء الحب:..... ص٥
تربيته لدى استاذه في الأخلاق:.....ص١٠
الرياضات الشرعية:.....ص٢٠
الوعي الإسلامي:.....ص٢٥
عبقري التوحيد:.....ص٣٠
من دروس الإباء:.....ص٣٢
الشعر العرفاني عند السيّد الحبوبي:.....ص٣٧
حق اليقين:.....ص٤٥
أثر الطبيعة في صياغة شعره العرفاني:.....ص٤٩
الحبوبي يدافع عن نفسه:.....ص٥٢
تذييل مختصر في معنى العرفان والعارف بالله:.....ص٦٩
تعريف العرفان الشيعي:.....ص٩٣
المحتويات.....ص٩٧